هذيـانُ هامشـيٍّ

روايـة

عادل إبراهيم علي

الكتاب: هذيانُ هامشيٍّ

المؤلف: عادل إبراهيم علي

الطبعة: الأولى سنة 2021

الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع

سيدي بوزيد - تونس

ISBN: 978-9938-9953-7-4

جميع الحقوق محفوظة

لدار القلم سيدي بوزيد

شارع أحمد التليلي – سيدي بوزيد / تونس

الهاتف:

216.94.268.394

216.27.200.779

البريــــد الالكتروني

touhami_heni@yahoo.fr

الإهداء

إلى الهامشيين في هذا العالم أولئك الذين يضجُّون ضجتهم فلا يكاد يسمعهم أحد..

على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة..

درويش

الفصل الأول

البوح الأخير

ذكريات واعترافات

المستشفى الجامعي أواخر ربيع وبداية صيف

1999

1

******

- والكلبة؟
- قتلها برد الشتاء.. المسكينة كانت صديقة لي في تلك الليالي الطويلة القاسية.. كانت تبثّ فيّ الطمأنينة والأنس عند الوحشة.. وهي إلى ذلك زميلة لي في عملي المضني.. المسكينة لم تنل أجرها..
- إلى رحمة الله..
- الكلاب لا تنشر ولا تحاسب، إنّما هذا شأننا نحن المبتلون..
- أي والله، ما أشدّ البلاء
- الحمد لله على كلّ حال، والسيّارة؟ أين سيّارتك؟ هل حلّ بها البلاء؟
- حلّ بي فبعتها..
- بعتها؟ هل كنت في ضائقة من المال.. يخلفك الله

- طردت من عملي فبعتها وفتحت متجرا.. عانت والدتي من المرض فأنفقت المال ولم تشف.. حتى أفلس المتجر.. عدت معدما.. تغيّرت حياتي وساءت أحوالي، أليس إلى الشقاء مآلي؟
- إيه صيرتك النوائب شاعرا.. لا تبتأس. سبحان مبدّل الأحوال.. اصبر واحتسب، دوام الحال من المحال.. أستأذنك إنّي عائد إلى عملي..
- وأنا أيضا أستأذن، إنّي عائد إلى الحياة

الحياة هي الطريق، والطريق شاقّ وطويل.. لكن لا بدّ من المسير. أسير أو لا أسير، ما من دليل.. وإن يكن؟ ليكن الدليل هذه الفوضى التي تسكن دماغي، ولأسر على غير منهج أتهجّى ما تكتبه هذه الخطى داخل هذا المسير.. ولتقتحمني ذكراك يا أنت.. يا التي أجمل من الحياة وأخلد من الروح.. يا نسيم حبّ يسكنني، "فدوى"..

هل تدركين أنّ طريقي شاقّ وطويل؟ هل تدركين كم أتعبني المسير دونك؟

18 يناير 1998

ها أنا أعود إلى بيتي آخر حصوني، حزينا كئيبا وحيدا.. ها أنا أذكرك كما تذكر ورقة شجرتها العارية. ربّما أحتاج إليك الآن أكثر من السنوات الفائتة.. حتى هذا العمر يمضي فراغا بلا شيء.. بلا كسب.. بلا هويّة..

لكن أين هي فدوى هذه؟ أليست مجرّد ذكرى باهتة الملامح من العبث تُنسج، وداخل الفراغ تعيش.. لا، فدوى لا بدّ تذكرني كما يذكر المصباح القديم الشارع، كما تذكر مقاعد الدّراسة الكرّاسات، وكما يذكر الطريق السائرين.. فدوى لا بدّ تذكرني..

وأحسّ أنّ الغرفة تضيق حول ضلوعه أكثر من المعتاد، والآلام تتجدّد، والفراغ يمتدّ إلى زوايا نفسه، فلم يعد يرى من الدنيا غير العجز..

وعاد غضّا نديّا مع الذكريات، كأن لم يمضِ ريح الأماني، ولم تتبعثر الدّفاتر المليئة بالأوراق المكتنزة بالأسطر..

وفي أعقاب هذا القرن المليء بالإنجازات العظيمة تسأل عن فدوى.. تسأل عن حبيبة السبعينات! فيم السؤال؟ أليست التسعينات أجدر بالتفكير فيها من السبعينات؟ يا لحقارة نفسك وضلال مقصدك..

عامل المأوى رجل لطيف وهو إلى ذلك عظيم ووفيّ.. ألم تر درجة تقديره لكلبته؟ والكلاب في الحقيقة كائنات لطيفة.. الكلاب ألطف من النعاج والقطط.. إنّها لا تغضب أبدا، فهي في العادة تبصبص بأذيالها، وترسم الابتسامة على وجوهها. أمّا القطط فهي كائنات أنانية، ما إن تضربها أو تلاعبها بقسوة حتى تفعل فعلا دنيئا كأن تعظّ أو تموء ببشاعة.. والنعاج لا تعبّر عن شيء سوى الاستسلام.. تشعر دائما أنّها مطيعة رغما عنها. وفي أوقات غفلتك ومن فرط لؤمها، تبحث عن سبيل للهرب.. لكن إلى أين؟ فأنت تحكم قبضتك جيّدا..

كان والدي حين يهمّ بضربي يناديني بلطف ويقول في تودّد:" تعال لأهبك لعبة أو حلوى." فأهرع إليه ببراءة كلب، وعندها يحكم قبضته عليّ ويعلّقني من قدمي في أعلى الجدار ويجلدني.. ثم يتركني بلا طعام ككلب..

سامح الله والدي.. كان رجلا طيّبا وشريفا ككلب.. لكنّه مع ذلك كان يكره الكلاب ويخافها.. والحقيقة أنّ الكلاب إذا أهملت تجمّعت، وتجمّعها مخيف.. والكلب يدافع عن الشرف والوفاء بحدّة بالغة.. أمّا هذه القطط الانتهازية السخيفة.. لَكَم أمقتها!!

كانت والدتي تحبّ القطط وتحنو عليها.. القطط أنيسة والدتي، فهي تربي منها الكثير. وكنت كثيرا ما أنزعج من منظرها متجمّعة في بيتنا أو في الحديقة.. وبدأت منذ ذلك الحين أفكّر في طريقة تنقذني من هذه البشاعة التي تزعجني كلّما خطر ببالي قطّ من قطط والدتي متعددة الأحجام والألوان والأسماء.. وكانت أمي تحرص أن تسمّي قططها بأسماء. واهتديت أخيرا وبعد تفكير قصير إلى طريقة تنقذني من منظر القطط البشع..

جلبت سمكا ومبيدا ودعوت القطط المدلّلة إلى العشاء الأخير.. رأيتهم يأكلون بنهم، ثم شرعوا يتساقطون أمامي الواحد تلو الآخر، الغول تلو الغول.. ورأيتني أضحك بلهو طفوليّ عبثي لم أستفق منه إلا وأمي

تصيح في وجهي وتطاردني من أجل هذا الفعل البخس. ثم رمتني بالحجارة كما يرمى كلب..

ولعلّني قد حلّت بي لعنة تلك القطط المشؤومة فخسرت كلّ شيء.. وفدوى هي الأخرى كانت تحبّ القطط وتكره الكلاب. عرفت ذلك بعد حفلة الإعدام التي أقمتها على شرف قطط أمي.. بكت فدوى ونعتتني بالمجرم ثم هربت عني حزينة.. هذه القطط الانتهازيّة السخيفة، لماذا يحبّها كل أناس العالم إلّا أنا؟

غادر غرفته عصرا.. ما تزال الصور تتوالى في ذهنه كشريط مصوّر:" كانت أمي حين تغضب ترميني بوابل من الشتائم لأجل سبب تافه عادة. وكان أبي يصيح في وجهها:" أنت حمقاء، حمقاء.. ردّدت مرارا أنّ هذا الولد يجب أن يؤدّب، لا تقفِ في وجهي حينما أهمّ بضربه."

وتردّ أمي:" اضربه، أقتله حتى تستريح. لقد صيّرته مجنونا من شدّة الضرب.. هل تحسبه بغلا؟" وينقلب الحوار إلى مشادّة تنتهي بتأديب والدتي.. إنّه يصفعها

لمرّات فيزداد لسانها تبجّحا. وعندئذ يتحوّل الصفع إلى ركل ورفس وتسدّد اللكمات.. وعندها أوليهما دبري وأركض بعيدا كي لا أنال نصيبي من الضرب. وكانت المقهى جزيرة آمنة في تلك الظروف، فكنت أدخلها.. ومن ثمة تعوّدت تدخين السجائر واحتساء القهوة ولعب الورق.. ونزلاء المقهى صاروا مع الوقت ندمائي. وكبر الولد الهارب واتّخذ طريقه من الخوف إلى التحدّي.."

سرت بين الناس كأني لا أعرفهم حتى وصلت إلى الحانة، رحّبوا بي كحريف عزيز وأثّثوا طاولتي بالزّجاجات. لكن أيّ من الندماء لم يجالسني. بعضهم كان غائبا وبعضهم تظاهر بأنّه لا يعرفني فيما حيّاني أحدهم من بعيد.. انقضت تلك الأيام فلم أكن لأعيرهم اهتمامي وما كانوا ليعيروني اهتمامهم.. وغزتني الذكريات من جديد.. شربت وشربت ولم أسكر، ولم تعرف نشوة النسيان والتيه طريقها إليّ..

فدوى.. هل هذا معقول أن أعود مراهقا بعد هذا العمر؟ لماذا أشعر أنّك حيّة داخلي كأنّما بالأمس قد

فارقتك.. وعمّ الضجيج والدخان الحانة فلم أعد أرى أو أسمع. ولولا النسمات الآتية من النافذة التي كنت بجانبها لاختنقت..

توالى إحراقي للسجائر، وتوالى رميي للكؤوس داخل جوفي. وعندئذ فرغ ذهني على نحو غريب لم أعهده منذ سنوات.. لم يعد داخلي غير الفراغ. لا الأفراح ولا الأحزان.. لا حبّ ولا فدوى، لا قطط ولا كلاب.. لم يعد بداخلي غير التيه والضياع.. أوفياء الحانة أمامي كأطياف. وفي سرعة بدت لي الحانة كفضاء واسع فارغ. وتبدّى لي أوفياؤها كالذّباب في الصّغر، كالعمالقة في الكبر.. وبدت لي صورهم كرسومات لرسّام كاريكاتوريّ.. الأنوف الكبيرة ما أشبهها بالغليون، العيون الواسعة ما أشبهها بالكاميرا.. البطون الكبيرة ما أشبهها بالبراميل الخشبيّة.. هذه الأجساد المتصلّبة ما أشبهها بالصوامع.. والأجساد المترهّلة كأفيال ثقيلة متعبة..

كم تخنقني ذكراها، وكم تهدّني رؤيتها على الأبواب ضاحكة، وكم يقتلني الحضور والغياب، وأنا أغيب إلى حدّ الذوبان في ذكراها..

وفي هذه الأثناء دنا منّي كهل وجالسني دون استئذان، ودون إلقاء سلام. وضع زجاجته على طاولتي ونظر في عينيّ وقال:" فبالذي ساق الشمس من المشرق إلى المغرب، وبالذي علّم الإنسان ما لم يعلم وبالذي خلق سبع سماوات طباقا في ستّة أيّام ثم استوى على العرش. من أنت؟"

في لحظة ضاع عنّي تيهي وتعبي، ونظرت في عينيه بتحدٍّ، وجالت مخيّلتي.. من هذا الذي يسألني من أنا؟ إمام أصابه خبل يذكر الله هنا.. يا للخيبة، يا للبلاء الذي نزل.. ورأيتني أجيبه كمن ألهم الجواب:" رجل ضاع عنه برزخ الحقيقة.." ورأيته ينظر إليّ بغضب، وبسرعة لطمني وقال:" فأولئك هم الفاسقون."

لم يبق إلّا هذا، دون تفكير منّي مسكت بتلابيب قميصه، وقبل أن أوجّه له لطمة أو أقول شيئا ما يلطّف غضبي،

ويحفظ كرامتي، رأيت الناس يلتفّون حولي ممسكين بنا..

- صلّوا على النبي
- أأصلّي على النبيّ هنا!

وقال خصمي وقد لعب الخمر برأسه:" إنّه رجل فاسق ضاع عنه برزخ الحقيقة. أردت فقط أن أرجع له ما فقد.."

- أرجعه لنفسك أولا. أيّها الملعون.. يا ابن ال... واندفعت نحوه في جنون أريد ضربه، فحالت بيننا الأذرع الصّلبة. تلك التي حملتني ورفعتني ودفعتني، فلم أع إلّا وأنا في الشارع خارج الحانة.. أشعلت سيجارة في غضب، وانحدرت نحو مقهى قريب..

أتذكّر الآن كلّ ما جرى.. لم تكن فدوى تحبّني كما كنت أحبّها.. رغم أنّ كلامها في خلواتنا كان ككلام الشعراء.. وكنت دائما أردّد على مسامعها:" إنّك أقدر منّي على صوغ الكلام، أمّا أنا فلا أملك عدا قلب يكاد

ينفطر من حبّك. ولسانا عاجزا عن الإفصاح.." وكانت فدوى عادة ما تعلو ملامحها حمرة تنمّ عن خجل ينبئك عن لطفها.. كانت فدوى بيضاء كالثلج، تعلو وجهها الملائكي حمرة.. عيناها سوداوان واسعتان، لا تحتمل أن تنظر فيهما ولو لبرهة من الزمن، لأنّهما سرعان ما يأسرانك.. وميض بعينيها يأخذك كالسحر.. شعرها مسافر وراءها كبطلات الخرافات والقصص.. وربّما كنت أحاول في حبّها أن أحضن حلما أو شيئا مفارقا لا يدرك.. لَكم كان حبّها مرهقا.. من الصعب أن تحتمل هجرها أو وصلها.. إني لكنتُ أشعرُ وأنا بجانبها أنّي أملك الدنيا. وما كنت أراني أسعد لو ملكت الدنيا وخسرت فدوى.. كنت في ذات الوقت أشعر بانقباض غريب يماثل من كانت له جوهرة نفيسة يخشى فقدانها.. كان من الصعب نسيانها، فقد تعلّمت في حبّها حبّ الحياة..

لكني لا أستطيع الجزم أنّ ما عشته كان حبّا.. كانت حالتي تشبه الجنون أو ضلال من تمكّن به سحر.. وذات يوم فقدت فدوى.. رحلت فدوى دون أن

أعرف عنها شيئا.. كلّ ما أعرفه أنّها رحلت. ورحلت أنا بدوري إلى العاصمة.. محاولا أن أنسى كلّ شيء.. ولقد تعكّرت حالتي فزاد جنوني عمقا. فكنت تراني أبكي دون سبب ما.. كلّما خطرت فدوى بخيالي، نزلت دموعي دون إرادة مني. وأحيانا أخرى أضحك بشدّة وقسوة حتى يكاد قلبي أن يتوقّف..

فشلت في الدراسة لسنتين.. كنت كمن هو في غيبوبة.. يعتريني الدوران، لا أفهم ما يقوله الأساتذة ولا أعيره اهتماما.. بل أشرد وأسهو ممّا سبّب فشلي مرتين.. وعدت إلى بلدتي خائبا ذليلا. فصرت أضحوكة أترابي الذين كان بينهم من توظّف في عمل حكومي محترم بأجر معتبر، يغطي مصاريف بعض شهر، أو شهرٍ للحكماء منهم..

وعزمت في لحظة على التغيير.. غيّرت الشعبة وأخرجت الماضي من دماغي، وحاولت أن أبدأ حياة جديدة ليس فيها إلّا أنا.. وتعلّمت عندها أن لا أهتمّ لأحد، ولا أحزن أو أفرح إلا لنفسي.. فبدأت رحلة تفوّقي.. بدأ النجاح يعرف طريقه إليّ شيئا فشيئا.. وما

هي إلا أربع سنوات حتى وجدتني في باريس الحريّة والعالم الحالم.. وما لبثت أن مرّت السنوات، وعدت إلى بلدي بشهادة الدكتوراه من أعرق الجامعات..

ولعلّه يخيّل إليك أنّني كنت حينها سعيدا أو أنّ فعلي خارق للعادة يتطلّب رجلا عبقريّا.. غير أنّ هذا الفعل لم يكن يتطلّب غير الإيمان بالذات كقوة فاعلة، وقلب كلّ ما يشلّ الإنسان إلى محفّزات ونقاط قوة، وهنا يكمن كلّ الذكاء.. ورغم ذلك لم أكن سعيدا، إذ أنّني ما إن لفحني ريح البلاد حتى كان ريح فدوى وذكراها يلفحانني معه..

2

****

طويت الأوراق التي بين يديّ وأطرقت.. ما يريد هذا السيّد أن يبلغني؟ هل يحسبني دار نشر؟ وفي لحظة ما خرجت مسرعا، ووجدتني أدقّق في اللافتات المعلّقة في مدخل العمارة. دقّقت وتثبّتّ.. محام، وسيط عقاري، مكتب للترجمة، مراكز ألعاب وإعلاميّة، ولافتات أخرى لا معنى لها. ولا تفيدني شيئا في حلّ المشكلة..

تركت المكان وبحثت في كلّ لافتات الشارع الذي ألفت علّني أجد دار نشر. لكني لم أظفر إلا بخيبة المسعى.. عدت أدراجي إلى مكتبي ولمحت على وجه سكرتيرتي الاستغراب والدهشة. ولعلّ وجهي قد أنبأ عمّا يختلجني من حيرة وتيه..

دلفت إلى الغرفة داخل مكتبي، وارتميت على أحد الكراسي في تعب لم أدر مردّه.. ضغطت على الزرّ وقلت:" آنسة فدوى، من فضلك قهوة."

وتردّدت الجملة في رأسي لمرات، وركّز فكري مع الاسم، فدوى.. أين سمعت هذا الاسم من قبل؟ إنّها سكرتيرة مكتبي منذ سنتين!!

جاءتني بالقهوة ووضعتها على الطاولة بينما كنت شارد الذهن.. مرهق الفكر.. وتسمّرت فدوى دون أن تدري، كأنما تنتظر عطيّة كنادل المقهى.. أفقت من سهوي وقلت بلطف:" هل هناك شيء؟"

- كلا، بالنسبة لي ليس هناك من شيء. لكن..
- لكن ماذا؟
- تصرفاتك هذا اليوم.. لم أعهدها منك منذ أن عرفتك..

أدركت أني كُشفت، وهممت أن أصارحها. لكني تراجعت في آخر الأمر وسألتها في استغراب:

- تصرفاتي؟ هل أبدو غريبا حقّا؟
- إنّك شارد ومهموم.. كأنّ بلاء قد نزل، هل هناك من شيء؟
- شيء مثل ماذا؟
- لست أدري.. ربّما تعاني بعض المشاكل
- المشاكل؟
- أعتذر إن كنت تدخّلت في شأن خاص
- أبدا.. ليس هناك من مشكل خاص أعانيه.. إرهاق ليس إلا..
- استرح هذا اليوم، بعض الراحة مفيد لاسترجاع النشاط.. سأتكفّل بأمور المكتب هذا اليوم سيّدي..

صوبت عينيّ ناحيتها ببلاهة في نظرات حيرى. وسرعان ما انتبهت إلى جمالها، وجالت في مخيلتي كلمات تطابقت مع الصورة التي أمامي في لحظة خاطفة:" **تعلو ملامحها حمرة تنمّ عن خجل ينبئك عن لطفها.. كانت فدوى بيضاء كالثلج.. عيناها سوداوان واسعتان.. لا تحتمل أن تنظر فيهما، لأنهما سرعان ما**

يأسرانك.. وميض بعينيها يأخذك كالسحر. شعرها مسافر وراءها كبطلات الخرافات والقصص." ثم جالت عينيّ في فضاء المكتب كأنّما استجابت لنداء الكلمات داخلي.. **"لا تستطيع أن تنظر فيهما لأنّهما سرعان ما يأسرانك."**

وثبتت صورتها في مخيّلتي مردّدا في داخلي**:" وميض بعينيها يأخذك كالسحر.."** ووجدتني شاردا من جديد، ووجدت فدوى تنبّهني**:**

- سيدي، سيدي

انتبهت كمن وخزني، والتفتّ ناحيتها في لهفة، فقالت:

- أعتقد أنّه عليك فعلا أن ترتاح..

حرّكت رأسي في بلاهة، وانصرفت دون أن أكلّف نفسي أن أودّع فدوى. ودون أن أهتمّ بشيء ورائي، خرجت إلى الشارع ساهيا عن كل شيء.. حتى سيارتي التي لا تكاد تفارقني، نسيت في تلك اللحظة بالذات أن أمتطيها.. بل وجدتني أتمشّى في الشارع الطويل كتائه

يبحث عن طريق أو علامة تقوده إلى عنوان ما.. ورنّت في ذاكرتي كلمات:**" الحياة هي الطريق، والطريق شاق وطويل.. لكن لا بدّ من المسير.. أسير أو لا أسير، ما من دليل، وإن يكن، ليكن الدليل هذه الفوضى التي تسكن دماغي ولأسر على غير منهج أتهجّى ما تكتبه هذه الخطى داخل هذا المسير.."**

ووجدت فدوى تقتحم رأسي اقتحاما.. توالت صور فدوى كالشريط منذ أن اخترتها للعمل معي حتى الآن.. توالت صور سنتين معها.. تذكرت أناقتها.. عطرها وسحرها.. فساتينها، ابتساماتها، ضحكاتها والتفاتاتها، ذكاءها وجمالها.. لكني لم أنتبه من قبل إلى كلّ ذلك، ولم أنظر إلى فدوى كأنثى أبدا.. إذ لم تكن علاقتي بها تتجاوز حدود العمل.. لكنّها سحرتني هذا اليوم. وأثارت داخلي مشاعر دفينة، ظننت نفسي دفنتها منذ سنين، ولكن هذا اليوم!!

وفي التفاتة خاطفة تبيّن لي طول المسافة التي قطعتها في صعيد واحد، وفي بعض التفاتة أخرى، وجدتني أحضن شيئا ما كأنّه جوهرة ثمينة.. توقفت، فإذا أنا أمام

طرد به أوراق كتبت بخطّ اليد. وصلني هذا الصباح.. دخلت فوجدته على طاولة مكتبي ودون أن أكلّف نفسي عناء السؤال عنه، وجدتني أفتحه وأقرأ منغمسا مع الأحداث.. وإلى الآن لا أعرف الحقيقة، أهو رواية أم قضيّة؟ أو لعلّه مداعبة غير بريئة من صديق..

تثبتّ في الطرد فلم أجد عليه أيّ عنوان. ثمّ تسمرت في مكاني، ورنّ سؤال داخلي: كيف انتهى هذا الطرد إلى يديّ؟ إنّي لا أذكر في أي وقت حملته. هل تكون فدوى من ناولتني إيّاه؟ لكن ما مصلحتها؟ هل كانت تراه شيئا مهمّا بالنسبة لي؟ لا، لا.. لو كان الأمر كذلك لتذكّرت. ولخاطبتني بشأنه. إنّه أمر غريب لا يستوعبه عقلي المريض..

واصلت سيري ووجدتني أنحدر نحو بيتي، وأصل إليه دون جهد. إذ غلب عليّ الشرود الذي لم أستفق منه إلّا وأنا أدخل بيتي.. مَثُلَ أمامي كأرضٍ ملعونةٍ، بيت يعمّه الفراغ والفوضى.. بيت يفتقر إلى الكماليّات..

أتذكّر الآن وأنا في الشرفة أنّي دخلت المطبخ، وفتحت الثلاجة، ثم أكلت شيئًا معلّبا. أعددت قهوة وصعدت إلى هذه الشرفة.. وضعت القهوة على الطاولة، وأخذت أرتشف منها..

لكن من الذي أتى بهذا الطرد الملعون ليضعه على الطاولة؟ يبدو أنّي سأجنّ، هذا الطرد الملعون لماذا يلاحقني أينما ذهبت؟ وبينما كان يتأجّج داخلي الغضب، وجدتني أنصاع في لطف وطاعة إلى صوت داخلي يقول في تؤدة وسحر:**" فدوى لا بدّ تذكرني كما يذكر الطريق السائرين.. كما يذكر المصباح القديم الشارع."** وتساءلت في خضم تخديري أيّ معنى لهذه الكلمات؟ وأيّ علاقة لها بي؟

ووجدتني أشرد مع صور فدوى، حتى صرت أراها داخلي أميرة وحلما لا يدرك.. وامتدّت في زوايا نفسي حتى أدركت أنّي وقعت فريسة لحبّها..

أنا أحبّ فدوى؟ موظفة مكتبي!! لا أهتمّ لها لسنتين وأحبّها في لحظة؟! لكن ما سرّ هذا الطرد الملعون؟ أيّ سرّ له.. أيّ سرّ له..

دقّت الساعة معلنة منتصف الليل.. كنت متعبا وغزا رأسي تثاقل لم أدر سببه. ربّما هو راجع لإسرافي في التدخين وإرهاق دماغي بالتفكير أو ربّما هو شيء لا أدري مصدره..

هذا الطرد الملعون؟!!

وجدت نفسي هذه المرة أحمل الطرد بيميني في احترام وإجلال دون أن أشعر.. إنّه يمارس عليّ سحره شديد التأثير. حملته ودخلت غرفة نومي، وكان جنب سريري منضدة عليها طفاية سجائر ومنبّه.. نفضت عنها بعض الغبار، ووضعت الطرد عليها جنب الطفاية والمنبّه. ثم غيّرت ملابسي في تثاقل، وارتميت على السرير متعبا.. نسيت أن أطفئ النور. وهدّني الكسل فما استطعت القيام لإطفائه وما اهتدى النوم إليّ وما عرف طريقه إليّ جفنيّ.. لم أستطع أن أقاوم رغبتي،

أشعلت سيجارة وغبت مفكّرا.. من أنا؟ محام حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة باريس الثالثة سنة خمس وثمانين وتسع مائة وألف.. فتحت مكتبي سنة ستّ وثمانين وتسع مائة وألف. وقتها تعرّفت إلى مريم. يا لمريم.. اقتحمتني كعاصفة.. عندما رأيتها أحسست أنّي لم أعرف نساءً من قبل.. كان يوما مثيرا، ذكّرني بقول الشاعر

كل السيوف قواطع إن جرّدت

وسيف لحظك قاطع في غمده

سيطرت صورة مريم على دماغي، وتحدّدت ملامحها بوضوح في مخيّلتي.. يا لهذا السحر! أحسست في تلك اللحظة أني عاجز عن وصف مريم. إنّ اللغة لتعجز عن وصفها، إذ تستحيل قاصرة على التعبير في حضرتها.. يا لعجزي وضياعي حينما أذهلني هذا الحدث المفاجئ.. حيّتني مريم، فاستجمعت قواي لأردّ تحيّتها وأبدو عاديّا إلى حدّ ما..

كانت مريم أول سكرتيرة لمكتبي. وظلّت كذلك لسنتين. كنت أختلق أسبابا واهية لأحادثها.. أسألها إلى درجة الإحراج في عدّة أمور، أغلبها شخصية. هل أنت متزوجة؟ مرتبطة؟ هل تحبين؟ لكني لم أجرؤ على طرق الباب الكبير.. كنت وحيد أمي وكانت وحيدتي.. فوالدي قد مات. وكان لا بدّ لي أن أتزوج.. فوالدتي كانت تعاني العجز والمرض، وصارت بعد هرمة. فما عاد كلانا قادرا على رعاية الآخر.. كنت تقليديّ التفكير في أمور الحياة. فرأيت أنّ الزواج هو الحلّ الطبيعي الأمثل لمشاكلي.

فجأة وجدت نفسي أمام مريم أقول لها في هدوء:

- آنسة مريم، هل تقبلين الزواج بي؟

كنّا في المكتب.. اِعتَقَدت أني أدعوها لأمر من أمور العمل. وهذا ما كان في نيّتي، لكني لم أدر كيف خرجت هذه الجملة من فمي.. غزاني الارتباك والتوتر.. لم أدر كيف أفلت لساني منّي.. وبرزت على وجهي حمرة كالصبايا. وانخفض بصري إلى الأرض

دون أن أشعر. أمّا مريم فلم تكن أفضل منّي حالا. أذكر أنّها تلعثمت أو أنّها همّت بالكلام ثم تراجعت.. لا أذكر التفاصيل، كان الموقف أشبه بمشهد سينمائيّ لمخرجٍ مهووس بأفلامِ الغموضِ.. لكني أذكر أنّ مريم صارت زوجتي. وصرت بلا سكرتيرة..

ضحكت حينها ملء السنين، ضحكا لم أضحكه منذ سنوات.. أشعلت سيجارة منخرطا في الضحك ومسترجعا أيّامًا خاليةً كان قد خلى ذكرها إلى الأبد..

مازلت أذكر ذلك اليوم جيّدا.. إنّه يوم لا يفارق ذاكرتي. يوم رحلت مريم كما رحلت فدوى.. وألقيت بصري ناحية الطرد فوجدته يغريني بالقراءة. لكنّ تعبي الذي هدّ مفاصلي منعني من أن أجذبه وأقرأ..

لتنامي في هدوء يا مريم.. ثلاث سنوات مرّت على رحيلك. لكنك مازلت حيّة داخلي كأني بالأمس قد فارقتك. وأتخيّل أنّك لابدّ عائدة.. فعقلي المهووس بك يحتفظ بصورتك كاملة..

في ذلك اليوم حذرتك يا مريم.. أخبرتك أنّ السيارات مجنونة، وأنت هادئة ودائمة الشرود يا مريم.. هل كنت تخفين عني أمورا يا مريم؟ كنت دائمة الصمت، شاردة الفكر.. غير أنّك كنت تحركينني كعاصفة.. تحرقينني كالنار.. تغرقينني بهدوء في حبّك.. وها أنا أغرق في ذكراك..

نامي في هدوء يا مريم.. نامي في هدوء..

كنت أعرف أنّ ذكراها لن تمرّ بسلام.. فجأة سمعت صرير الباب، ثم رأيت مريم تفتحه.. ابتسمت ابتسامتها المعهودة، وضعت ورودا على الطاولة وقاسمتني فراشي.. كنت على سفر إذن؟ نعم كنت أعلم أنّ ذكراك لن تمرّ بسلام..

تقول السّجلّات الرسميّة أنّك متوفّاة بتاريخ الثاني عشر من أبريل لسنة ست وتسعين وتسع مائة وألف.. فما سرّ ظهورك المتكرّر كلّما ذكرتك؟!!

آه، أظنّ أنّي مجنون. بل مؤكّد أنّي مجنون..

3

******

مريم.. هل تعرفون مريم؟ ما أجمل مريم! فهي جميلة بقدر ما أنّ هذا الكون عظيم..إني لأذكر عروسي كما أذكر العدم، إذ تبدّى لي سخف الحياة..

كانت سخيفة إلى درجة البؤس، إلى درجة اللعنة.. أمّا أنا فإنّي وحيد بقدر ما أنّ هذا الكون عظيم، ومريم كانت تماثله جمالا ومحبّة.. مازلت أذكر مريم وكل تفاصيل حياتي معها حتى آخر لقاء.. أمّا فدوى فإني لم أعلم عنها شيئا منذ ذلك العهد. ولم أعد أذكر من ذلك العهد إلا أطلال هوى..

"وكان يعلم رغم خطواته الثقيلة المتعبة أنّه لا بدّ عائد إلى نقطة الصفر، وأنّ الدائرة لا بدّ أن تضيق حوله إلى أن تخنقه.. وتبدّى له العالم كزنزانة عظيمة، وشبكة من العلاقات المتعدّدة المعقّدة.. ولكنها تضيق عليه، وتحكم قبضتها كشباك العنكبوت. وأمّا الحياة فليست سوى

مزحة بائسة لأناس مخدوعين.. كان يعلم أنّ النار التي غزت قلبه لا تنطفئ.. وأنّ الجراح التي ظنّ عبثا أنّها التأمت لا بدّ عائدة عليه بالألم والندم. وهو إذ يجتاز عقبة الشارع إلى المنعطف، عالم لا محالة أنّ حلمه غائر في السراب، في الخسران والخيبة. وهو إذن لا يبحث عن شيء فقده، بل عن شيء لم يمتلكه..

وعلى يمين الشارع كانت المقبرة، أين ترقد مريم بسلام.. هل هو روميو القرن؟

الحقيقة أنّ حكايات فدوى ومريم والقانون والمكتب لم تكن إلا مهربا من حقيقة ثابتة ظلّت تراوده وتطارده أينما حلّ، وكأنّها تعلّقت بركاب معطفه الطويل الأسود. وحذاء المهرجين هذا..

أليس لك مال لتزيل عنك هذه الأسمال وتكون مثل الناس سويّا؟

الحقيقة أنّ مرضا برأسه قد حلّ.. وأمراض الرأس يا سادتي أكبر من الصّداع والغثيان.. إنّه مرض ينخر

الدّماغ والأعصاب. وأنت يا سيّدي، هل لك الآن أن تعالج رأسي من مرض ينخُر الدّماغ والأعصاب؟"

أنا يا سيدي ملعون بدرجة قاسية.. ملعون إلى درجة لا تحتمل.. إني لأتساءل أيّ خلاص لي من آلاف الأسئلة التي تزدحم دفعة واحدة برأسي المريض.

ما أكتبه إليك يا سيدي في هذا المخطوط، ليس كلاما بلا معنى أبدا. بل هو أقصى ما أستطيع من التوضيح والشرح.. لكن كيف أشرح لك شيئا يلفّه الغموض؟ وأجد نفسي، أنا نفسي عاجزا عن فهمه..

كلّ ما أعرفه الآن أني مريض.. ولا تعتقد أنّ مرضي كما أوهمتك هو بسبب الحبّ.

لكن هل يعرف مجرم مثلي الحب؟!!

في البدء يا سيدي زرعت الأشجار.. الأشجار؟ هل تعرف أنّ الأشجار أجمل ما في الكون.. نعم يا سيدي زرعت أشجارا كثيرة فنَمَت، زرعتها لأجل

سبب واحد.. ليستظلّ الآخرون بظلّها.. أمّا أنا فكم كنت أفضّل لفح الشمس الحارّة عن الظلِّ..

الظلّ مهرب بائس لأناس جبناء.. ألا توافقني أنّ الظلّ مهرب لمن لا مهرب له.. أيّها المخدوعون، لماذا تهربون من الشمس إن كنتم لابدّ مواجهوها.. لنبقى إذن في النور وليكن ما يكون..

لكني لم أكن في النور مطلقا! لأني كنت مثل الآخرين جبانا!.. جبان يكره المغامرة..

أعتقد الآن رغم عقلي المريض الذي لا يفرّق جيّدا بين الصّدق والكذب أني كنت كاذبا.. فالحكايات التي سردتها عليك في المخطوط عن الحبّ والمكتب والدكتوراه..

الدكتوراه؟

كانت كلّها أكاذيب ملفّقة من فرط بؤسي لأبدو سويّا ومحترما في نظركم.. ويعتقد عقلي المريض أيضا أنّ فدوى ومريم هما موجودتان فعلا. لكنّهما كانتا كغيرهما

من النساء، امرأتان عاديّتان كأبسط ما تكون العادة البائسة.. لكني ببراعة كاذب غيّرت حقيقة النسج الذي ربط مفاصل الحكاية، والعلاقات. وأنشأت حكايات أخرى ملفقة أرسلتها إلى مسامع القارئين ليتسلّوا. ولأبدو مهمّا إلى حدّ ما في نظركم..

أليست المآسي على بساطتها أو حدّتها تعطي احتراما للمبتلين وتجعلهم من أعاظم الناس حين يصيرون عبرة وتسلية؟

وإذن كان لا بدّ لي من الاعتراف.. ليس أمامي الآن غير الاعتراف، وأنا أهمّ بتمزيق ما احتوى هذا الطرد من أوراق مكتوبة.. هذا الطرد الملعون الذي احتوى حكايتين ملفقتين، زعمت أنّ بطليهما شخصان مختلفان جمع بينهما تشابه الأحداث..

لكنّهما في الحقيقة لم يكونا غير صورة بغيضة بائسة وانعكاس أحمق لرجل تافه..

حينما أردت أن أمزّق ما في الطرد من أوراق، غزتني أسئلة كثيرة مرهقة.. وأحسست في بساطة أنّي غير

قادر على الخلاص من هذه الأكاذيب.. إنّها قريبة إلى قلبي كأشدّ ما يكون القرب.. وأنا في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم أن كلّ ما احتوته كان كاذبا.. على الأقلّ يثبت فيها صدق قصص الحبّ، وإن كان قد عمّها الزيف والتلفيق. فأنا لا أنكر حبي لفدوى لسنوات خلت. ولمّا تركت المدرسة، تركتني فدوى معها.. وتباعدت المسافات بيننا كأشدّ ما يكون البعد.. تباعدت شيئا فشيئا، حتى عدت لا أحلم بلقاء فدوى ولا حتى في الخيالات.. وبدأت أنسى فدوى وعهد الغرام البائس معها. نسيته تدريجيّا إلى أن علمت بزواجها.. يومها تأجّج الحب في قلبي، وأحرقت علب السجائر كعادة الرجال البائسين المنهزمين.. وعادت الذكريات غضّة نديّة كأني بالأمس أحببتها، والتقيتها..

إني لا أحزن لحبّ ضائع، وما كان وجعي لأجل ضياع فدوى. ولكن وجعي كان لأجل نفس تائهة في بحر من الأوهام..

ولعلّي لا أحتاج هنا أن أزيد في فدوى كلاما، أو قل لماذا أذكرها لك ما دامت قد صارت من الماضي.

وصارت لها حياتها المستقلّة عني.. أمّا مريم فإني في الحقيقة لم أعرفها لا في مكتب ولا في جامعة. بل كان كلّ ذلك تزيينا للحقيقة وتزييفا لعلّي أصير في نظر الناس عظيما..

مريم هي امرأة عرفتها أمي، ومدحت خصالها فزوجتني بها.. ولعلّي لا أنكر في موضعي هذا أنّي أحببتها.. أحببتها لأنّها كانت جديرة بالحب. وكلّ من عرفها أحبّها. وأنا عرفتها لثمان سنوات قبل وفاتها..

مريم كانت المصباح المضيء وسط الظلام، والدواء المسكّن لعقل مريض، وكانت دليل تائه بائس.. أقول هذا ولا أزيد عليه شيئا، لكن رحم الله أمي لقد كانت امرأة..

يبدو من الأفضل لي بل للجميع أن أظلّ بعيدا.. ففي البعد راحة من الألم والفعل. وإذا كان الفعل ملعونا كخطاي الآثمة فمن الأفضل أن أظلّ بعيدا.. كم تجتاحني رغبة في أن أذهب بعيدا حيث العدم أو حيث الحياة حيث ها أنا إذن وحيد.. فلتستوي إذن كلّ

الأشياء في نظري، وليكن ما أريد أو ما لا أريد.. هل أبدو الآن كشبح..؟ هل أبدو كصحراء موغلة في الشساعة، وموغل أنا في التيه..؟ وهل يبدو هذا العالم غير نقطة سوداء موغلة في الوحشية؟

كان من الأفضل أن أظلّ بعيدا. وهكذا عزمت على أن أسير في طريق موحش. ولن أكون إلا شمعة وسط ليل حالك الظلام.. ولن يظهر الظلام لي غير بقايا عالم يعيش على أنقاض الحلم.. ومنذ الآن لن أكون كما تبدّى لي في غمرة من الوهم الكاذب. بل لن أكون شيئا أبدا!!

"وانتحى ناحية من الشارع حيث وقف متأمّلا. ولم يلبث أن انعطف تجاه الحانة.."

الجعة الباردة ذات الطعم اللذيذ، بلذّة مرارة السنوات.. بلذّة الآلام والأحلام.. بلذّة الخطايا والبقايا. أليس هذا وقتا للحلم؟ إني أبدو إذن ظلّ حالم. وليس الحلم حلما ما لم يكن ظلاّ. ولتكن أمسية من الأمسيات..

ما كنت أدري أني ضمن العالم، العالم.. هذا الطريق الموحش الذي يجب أن نسلكه باتجاه العدم.. هل أنا

حكيم إذن بنسجي لبعض هذه الأكاذيب، ولإنشادي هذا الكلام المتملّق؟!

لا شيء واضح البتة. وهكذا العالم.. كل شيء يلفّه الغموض.. كلّ شيء يتلاشى بلا سبب، ولم يبق غير الجنون.. الفوضى تعمّ العالم، والإنسان وحش نمت لديه إلى درجة لا متناهية قدرة غريبة على الشراهة.. الشراهة في الفعل، في الشرب، في الأكل.. في حبّ التملّك.. الشراهة في التقدّم.. شراهة في الاستهلاك بجميع أنواعه.. نستهلك الأحلام والأوهام.. الأكاذيب، الحقائق، القيم.. إننا مستعدون لاستهلاك أيّ شيء.. الندماء امتلأت بطونهم وهم مازالوا يصرخون في كل مكان هل من مزيد؟ هل من مزيد؟

كنت دائما أفكّر في شيء يخرج العالم من الرداءة.. من هذا الوحل الذي يتردّى فيه ويبلعه.. لقد ضاع كلّ شيء. ولم تبق غير لذّة الشراب.. وفي الليل تجتاحني الأحلام والأوهام، حين أغدو ظلّ شبح تائه وسط عالم من الأشباح.. هل لوجودي إذن حضور ما؟

4

*****

لقد تأكّد لي من خلال تلك السنوات المديدة التي عشتها أنّني لم أكن أساوي شيئا بالفعل.. كنت عادة ما أهرب من حقيقة لم أصدقها يوما.. كنت دائما أحاربها بهروبي فيما كانت هي تطاردني كظلّي. كنت أسعى دائما لأكون شيئا، فيما كانت الحقيقة تقول أنّي لا أساوي شيئا..

اليوم نشرت بعض الصحف خبرا عن مسابقة أدبية، وكان الأمر مغريا لي.. فقد رصدت للفائز المفترض جائزة قيّمة. إضافة إلى نشر العمل الفائز على نفقتهم. غير أنّه لم يكن لديّ متّسع من الوقت، يسمح بالاستعداد الجيّد للمسابقة.

كان معي من الوقت ما يقرب من شهر ونصف، وكان عملي منقوصا. فلم أخطّ في العمل الذي لا أدري إن كان ممكنا أن أطلق عليه اسم رواية، غير بضع

صفحات لا تسمن ولا تغني من جوع. وكان عليّ إذن أن أتمّم عملي خلال تلك المدة الوجيزة..

كنت في بعض أوقات كآبتي، تلك التي أفرغ فيها من كلّ شيء يشغلني. كنت أخطّ بعض الكلمات التي لا معنى لها ولكنّها شكلت مع ذلك شيئا ما.. وعلى هذا الأساس فإنني قد عزمت على جعل تلك الخواطر رواية..

كانت بشائر الفشل قد هلّت كنسائم الحرّ القاتلة. لكني كنت مصرّا على المضيّ حتى النهاية.. كان عزمي عاليا وصادقا ضمن تلك المرّات القليلة التي أكون فيها عازما على فعل شيء..

أعدت قراءة الجذاذات محاولا أن أربط بين مفاصلها. لكنّه كان فعلا بلا جدوى.. ووجدت نفسي دون شعور منّي أنساق في ما كنت فيه.. لم أستطع أن أجعل خواطري رواية، فما كان مني إلا أن أكتب المزيد منها.. توالت الأيام وأنا أكتب حتى تهيّأ لي أني أهذي

حين صارت بيدي رزمة من الأوراق المكتوبة لا تشكّل جنسا أدبيا معيّنا..

بالطبع، لم تكن لي في تلك اللحظة أو في ما سبقها أو في ما تلاها معرفة واسعة بخصائص الأجناس الأدبيّة، أو ما يميّز أحدها عن الآخر. كنت فقط أعرف أنّ الرواية تكون طويلة وكثيرة الصفحات ومدققة التفاصيل.. أمّا الأقاصيص فكنت أعرف أنّها مختصرة بشكل مجحف. في ما لم أكن أعرف عن القصة غير اسمها. أمّا المسرحيّات فكانوا يرددون من حولي أنّ الحوار يميّزها، وقيل أيضا أنّها ليست أدبا.. على كلّ، لم أكن لأهتمّ بذلك. كنت فقط مهتمّا بما أستطيع أن أكتب، وهو لا يصنّف ضمن ما ذكرت.

لمّا كانت أمامي رزمة من الأوراق المكتوبة أخيرا، أحسست أنّه ثمة شيء ما قد تحقق.

أحسست أنّه ثمّة حلم قد اكتمل، وقد خرج مني شيء على كلّ حال.. ليس لي الحقّ في أن أحكم عليه. لكني مع ذلك زهوت به كمنجز ما..

خطرت ببالي فكرة في تلك اللحظات، إنّ هذه الأوراق المكتوبة والتي لا تنتمي إلى أيّ جنس من الأجناس. كانت تشكّل مع بعضها شيئا ما.. كانت تشكّل صورة صادقة عني.. تغزوها الفوضى والغموض. لكنّها مع ذلك كانت انعكاسا لصورة حقيقيّة عني كما تعكس المرآة الصور..

وتبدّى لي أنّه ثمة معنى تحمله هذه الخواطر. وكنت أرى أنّه ثمة خيط يخيط تلك المتفرقات السرديّة.. شيء ما أشعرني بوحدة مسار روائي ربط بين تلك المتفرقات.. ودون تفكير مني تناولت الأوراق بحماس وعزمت على تقديم عملي للمسابقة..

أمضيت نحو شهر في الكتابة، وكلفتني أعمال الرقن والتنظيم أسبوعا. كان مذهلا لي ومفرحا أن أرى كلماتي منسقة ومخطوطة في ما يشبه الكتاب. أحسست لأول مرة أنني شيء ما في هذا الكون، وأنني أتقدّم نحو الأفضل.. غزاني شعور بالعظمة والتفاهة في آن.. إذ خمنت أنّه عمل لا فائدة منه، نوع من العادات السيئة كالتدخين. أحسست عندها بحاجة ملحّة لأن أدخّن،

فلم أجد بدّا من إشعال سيجارة.. أشعلتها، وأطلقت دخانها في الهواء كقاطرة مزهوّة بعظمتها حين يتبدّى لها أن لا أحد يستطيع الوقوف أمامها..

فجأة ألقيت سيجارتي لمّا صدع في وجهي عامل الرقن طالبا أجرة لم تخطر ببالي.. هو ليس بالمبلغ الكبير حقّا، لكني لا أملك نصفه على كلّ حال، أحسست ساعتها بأني لا أساوي شيئا فعلا. فلم أفكّر إلا في الهروب، وبلهجة لا تنمّ عن شيء غير اللامبالاة قلت:" سآتيك بما تريد في المساء أو غدا.. وأومأ هو برأسه موافقا. وانطلقت هائما على وجهي جاعلا من هذا الأمر البسيط قضيّة عظيمة في دماغي الذي لم يغزه الجنون بعد..

عدت إلى بيتي منكسرا، أحرقت ما تبقى من سجائري. وحينها اكتسحني نوم ثقيل.. كنت يائسا، فغفوت مستسلما لنوم بلا طعم كالموت..

في المساء كان عليّ أن أستفيق من نومي على إثر مهاتفة من صديق ليس بالحميم.. وكان عليّ على إثر

ذلك أن أستعدّ للقائه بإحدى المقاهي. كنت مهموما ومنقبض النفس. فقد رأيت والدي الميّت في الحلم.. كان يطاردني بعصاه ويشتمني، فيما كنت أنا أتساقط وأتهاوى متألّما ومختنقا. ورأيت وجهي ملطّخا بالتراب.. كنت متعبا ومثقلا. ولمّا أفقت من نومي، كانت عظامي كلّها كأنّما دقّت بالعصيِّ فعلا. وكان العرق يتصبّب مني كأنّما كنت أسبح فيه.. كان ذلك عصرا، وكانت أمي قد سافرت إلى بيت شقيقتها التي زوّجت ابنتها. كنت إذن وحيدا في تلك الساعات الحارّة من شهر مايو. لم أكن أؤمن بالأشباح ولا بالجنّ، ومع ذلك فإني لا أفهم إلى الآن سرّ ذلك الخوف الذي كان يسكنني، وتلك الرهبة التي تجتاحني كلّما انفردت بي جدران ذلك البيت المشؤوم الذي أكرهه..

كنت دائما أنتظر أن يدخل عليّ والدي الميّت بعصاه، ليهدّدني مزمجرا وشاتما ومقزّما..

في ذلك المساء عادت تلك الرهبة لتجتاحني إلى درجة أنّي لم أجرؤ على إشعال سيجارة، كنت في أمسّ

الحاجة إليها.. لم أكن أكره والدي، لكن من المؤكّد أني لم أحبّه أيضا..

كان الطقس حارّا كعادة الأيام الأخيرة من شهر مايو، حين يتهيأ الصيف ليجثم بحرّه على الأرض والنّفوس. ومع ذلك فلم أكن لأهتمّ. بل خرجت ملبّيا نداء ذلك الصديق، ونداء الحريّة داخلي.. خرجت إلى الشارع الذي كان خاليا تماما باستثناء بعض عمال المتاجر. والباعة المتجولين، الذين أخذوا في التحديق بي في طمع على أمل أن أشتري شيئا.. نظراتهم ذكّرتني بقطط أمي. تلك الكائنات السخيفة والانتهازية.. لم أستطع أن أقاوم رغبتي في إشعال سيجارة فأشعلتها مزهوّا، إذ كنت أحبّها فعلا..

وصلت إلى المقهى، فوجدتها فارغة في تلك الساعات الحارّة إلا من أنفار قليلة ملّت سجن البيوت فآثرت عليه سجن المقهى.. كانوا جميعا يحرقون السجائر ويحتسون الشاي البارد، في قتامة تشعرك بعظمة الفراغ والملل.. بعضهم كان يتابع التلفاز في لامبالاة. والبعض الآخر كان ينغمس بحماس في لعب الورق..

رغم ذلك كان المشهد ضبابيا، فلم أستطع أن أميّز صاحبي إلا حين أومأ بيده داعيا إياي لمجالسته. كان يحرق سيجارته الفاخرة، حين تهيأ لي أنا أنّها فرصة لتدخين السجائر الفاخرة مجانا، بعد أن أحرقت سجائري كلّها في البيت. ولا أدري كيف أفلتت تلك السيجارة التي دخنتها في الشارع من الاحتراق رفقة زميلاتها، فنالت شرف الاحتراق وحيدة..

انطلقتُ نحوه بسرعة وصافحته، فرحّب بي، وأذن لي في الجلوس.. بالطبع لم أكن لأغفل عن اقتناص فرصة لتناول سيجارة فاخرة دون أن أستأذن منه. وما كان هو ليهتمّ. على الأقل هذا ما لمسته على امتداد سنتين عرفته فيهما.. كان صاحب متجر للملابس، فيما كنت أنا مجرّد عامل يومي. بعد أن تخلّيت عن الباكالوريا، وبعد أن حصلت على شهادة مهنيّة في أحد اختصاصات التكوين المهني، لم تكن لتنفعني. فلم أجد أمامي غير سطل الإسمنت، وحجر البناء القاسي..

طلب لي قهوة، فأخذت في احتسائها، وأخذنا في الحديث في أمور شتّى إلى أن كلّمته بشأن المسابقة.

فقال في سخرية غير خافية:" يا للفخر.. المسعدي يجالسني." وقلت في مرارة:" لم أجد مالا أدفعه لعامل الرقن." بينما صدع هو في وجهي كحكيم:" أنت صاحبي، ومن حقّك عليّ أن أنصحك. أنت تمتلك بيتا، ونستطيع القول أنّك تعمل. وقد تجاوزت الثلاثين.. الآن عليك بالزواج. ابحث عن امرأة تسعدك، وتغيّر حياتك. ودعك من هذه المراهقة الثقافيّة.. أتركها لأولئك الذين لم يخبروا الحياة بعد.."

بالطبع لم أكن لأعير كلامه أهميّة، أو لتشغلني لهجته الحكميّة تلك بالتفكير. فقد كنت أعرف كل اتجاهات الحياة دون أن أستطيع الاختيار.. كنت تائها ومتقبّلا لما تختاره الحياة، ولم يكن كلامه ليجعلني أختار أو أهتمّ.. ودون أن أجد فرصة للردّ، وجدت ابتسامة هازئة طريقها إلى شفتيّ اليابستين.. ارتشفت من القهوة، فإذا بها الأخيرة، وإذا بصاحبي يهمّ بالقيام فأمسكت بيده وقلت في ما يشبه التوسّل:" ألا تساعدني؟" فردّ في لهجة تهرّب ونفاق:" من أين؟ السوق كلّه يعاني الكساد." وأضاف:" ثمّ هل تريد منّا إضاعة المال في

هذا الأمر التافه؟ الكتابة؟ هل هناك من يقرأ؟ أو يجد الوقت لذلك..ثم من قال إنّك ستفوز؟ قم بنا إلى أعمالنا."

أمام دهشتي وبهتتي، قام صاحبي منطلقا نحو النادل ليدفع، فلحقته..

في تلك اللحظة النادرة ضمن الفرص التي تقدّمها الحياة فجأة، أطلّت رزمة من المال من جيب صاحبي.. كان مشغولا بحديث جانبيٍّ مع النادل، وكان النادل حانيا رأسه إلى الأسفل، ومصوّبا نظراته تجاه قطعه النقديّة الصغيرة التي أخذ في فرزها ليرجع بعضها لصاحبي. وكان روّاد المقهى منشغلين بأنفسهم، وبلعب الورق أيضا.. فكانت فرصة للقيام بعمل جنوني.. كانت تكفيني لمسة واحدة.. جذبة واحدة كانت تكفي لأعيش ساعات من السعادة.. دار كل ذلك بخلدي في لحظة خاطفة، ولا أدري كيف وفّقني الحظ لأنجح.. فعلتها بسرعة وبنجاح. كنت ماهرا رغم أنّها المرة الأولى التي أتجرّأ فيها على مثل هذا الفعل الذي يعدّ سيّئا في ما أعلم..

جذبت الرزمة دون خوف من أيّ شيء، وأخفيتها بسرعة في جيبي.

وقلت في انتصار:" لنذهب." ثم خرجت فتبعني هو كأبله.. وعلى عتبة المقهى، كان صاحبي يعتزم الخلاص مني. وكنت مثله أعتزم ما يعتزم. فصافحني مودّعا متعلّلا بمشاغل تنتظره، فما كان مني إلا أن أومأت برأسي، وقلت مودّعا:" يعينك الله." قلت ذلك بينما جعلت أصابعي تتحرّك في الهواء نحوه في حركة وداع لا مبالية.. وما لبثت أن انحدرت في شارع بدأ يستردّ عافيته تدريجيّا بعودة المارة، فيما كانت الشمس تحاكي جهنّم..

لم أكن لأهتمّ لتلك الحركة فيما كان النهار يتهيّأ ليأفل.. كان الوقت يقترب من الخامسة، وكانت بعض النسائم الخجولة قد بدأت بعد تهبّ، فيما كان عمال المتاجر يرشّون الماء على أرضية الشارع الطويل..

دون تفكير وجدتني أتّجه نحو أول كشك لأشتري علبة سجائر فاخرة، وأشعلت بسرعة مزهوّا بنصري منطلقا

نحو عامل الرقن، ونسائم السعادة تغزو كياني كلّه حين كانت الأحلام العريضة تغزو قلبا لم يقتنع منذ زمن أنّ تلك الأحلام كانت تعنيه..

لم أفق من زهو العظمة ذاك إلا وأنا أمدّ عامل الرقن بما يطلب كأجرة. ابتسم ومدّني بالعمل بعد أن قام بنسخه ووضعه في مظروف.. ثم دعا لي بالتوفيق، وهو يلقي بالمال في الدرج متلهيًا عنّي بعمله. ففهمت أنّه عليّ الرحيل. حينئذ ضممت المظروف إليّ في حبّ، وانصرفت مسرعا إلى بيتي..

ذلك البيت الكئيب قد أزيحت عنه كآبته هذا المساء، وهذه الليلة.. وصلت إلى البيت إذن، وقد غزاني شعور أحمق بأني أمتلك أخيرا شيئا ما على قدر من الأهميّة بالنسبة لي..

ارتميت متهالكا على كنبتي اليتيمة، وأخذت في حرق السجائر.. أحسست أنّ قلبي سيتوقف، وأنّ عيناي غائرتان في الخواء.. كان الجوع قد هدّني في سكون. وأخذ جسدي كلّه يرتجف.. شعرت لأوّل مرة بصدق

تلك المقولة الرائجة والممجوجة:" من الممكن أن يفاجئك الموت في أيّة لحظة." وعرفت أنني لست في مأمن، وأنّ حلمي غائر في السراب في تلك اللحظة..

حينها خفت ألّا أتمّم حلمي اليتيم.. كان عليّ أن أوصل الطرد قبل أن يفاجئني الموت.. هذا الغول الذي اكتشفت في لحظة خاطفة أنّه يتربّص بي، ومعي ملايين الملايين من البشر.. وفي اللحظة نفسها قررت أن أناضل من أجل الحياة التي كانت بالنسبة لي ممثّلة في ذلك الطرد الذي كنت أراه ككنز..

نهضت في خفّة إلى المطبخ، حيث يوجد رغيفين من الخبز وبعض حبّ من زيتون مخلّل.. أكلت حتى شبعت، لكنّ الرعشة التي غزتني لم تذهب.. كان عليّ أن أجد شيئا ما يبقيني على قيد الحياة.. فكّرت في أن أصنع طعاما فيما أخذت ألعق السكر..

لا أدري لماذا تذكّرت في تلك اللحظة أمي وأبي وفدوى، فاختلط عليّ الشوق بالخوف.. لست أذكر جيّدا. لكني أذكر أنّ منظر بيضات استرعاني حين

فتحت الثلاجة، فتناولت منها أربعا، ثم وضعت ثلاثا منها على النار، فيما كان قد عنّ لي أن أتناول الأخيرة نيئة ففعلت..

تحسّنت حالتي بعد، ولمّا التهمت البيضات الناضجة، عادت حالتي كلّها على ما يرام. فعدت متهالكا على كنبتي اليتيمة وأنا أضحك، شاعرا أنّ الحياة لحظة والموت لحظة..

في تلك اللحظة عينها رنّ هاتفي، فما كان مني إلا أن أرفع السماعة منصتا. فإذا به صاحبي ذلك الذي سرقت ماله. وبالطبع فقد عرف أخيرا أنّ ماله قد ضاع منه إلى الأبد.. الأبد، تلك الكلمة التي لا أعرف إلى الآن معناها، ولكني كنت أعرف أننا نعتمدها للإشارة إلى ذهاب شيء بلا عودة، أي إلى الأبد..

واسيته وأظهرت التعاطف، رغم تلميحات الاتهام الصادرة عنه تجاهي. وأذكر أنّي قلت مستهزئا:" ألم تقل إنّك لا تملك مالا وأنّ السوق يعمّه الكساد؟ فمن أين لك المال حتى تضيعه إلى الأبد.." وانفجرت ضاحكا

من الأبد، بينما قال هو:" هذا المال له أصحابه.. إنّها خسارة لن تعوض."

وأضاف:" لعلّ الله عاقبني لأجلك." ولم أدر إن كان يقول ذلك صدقا أم استهزاءً. لكني قلت خاتما وقد ضجرت منه:" الله يعينك." وقطعت الاتصال لأعود إلى كنبتي اليتيمة مشعلا سيجارة فاخرة، وأنا أرمق الطرد وأهيم به بافتتان كما يهيم الرجل الواهم بامرأة جميلة إلى أن أخذتني غفوة ساحرة.. أطفأت السيجارة وتمدّدت على كنبتي المهترء جلدها، فيما كان الليل يسدل خيامه على المدينة بعد..

كان نوما ثقيلا، وكنت خلاله كالمستقيل من الحياة التي كانت تشدّني من خلال كوابيس نومي أيضا.. لماذا أخذني النوم إذا كان يعرف أنّه ممتلئ بالكوابيس؟

كنت في لحظة بين الحياة والموت، حيث كان جسدي مخدّرا بينما كان رأسي يختنق بالأفكار والصور.. عاد والدي ليطاردني بعصاه، كان مظهره وبنيته مخيفان.. كان دقيقا كعصا، إلى درجة تهيّأ لي أنّ بعض أطرافه

ستنقطع.. في البدء حاول أن يلمسني فيما كنت أنا مرتعبا. كان معي شخص قد حماني منه. فخرجت مسرعا.. كان المكان في الحلم غرفة يرقد فيها والدي، وكان ينظر إليّ بقسوة ولعنة. وكان باستطاعته القيام بين الحين والحين ليخيفني.. وقد ذهب في ظني أنّ المكان هو مصحة.. حين خرجت كان أمامي بهو واسع ومطليّ بالبياض. كانت به فدوى قطعة من البياض.. شعرت بارتياح وسلام يغزوني. وفي الآن نفسه شعرت بأني مطارد.. مطارد من شيء لا أعرفه. وكان حولي بعض الناس يركضون، فركضت معهم ناسيا فدوى.. كنت أحسب أنّي وسط الناس، لكن سرعان ما وجدت نفسي في الخارج وحيدا..

كان شعورا مرّا أن يحدث معي ذلك حين تبدّى لي طريق المقبرة التي لم تكن تبعد عني سوى خطوات.. كان عليّ أن أختار بين طريق المقبرة، وبين طريق آخر يأخذ إلى الأعالي، لم أرد أن أسلك طريق المقبرة لأني كنت أعرف أنّ أبي يرقد هناك. وهو على كلّ حال لن يتركني أمرّ في سلام.. لذلك خيّرت أن أسلك

الطريق الآخر، وقد ذهب في ظني أنّه طريق خطر.. ولمّا سلكته اعترضني رجل ضخم، وأخذ في محادثتي ثم غضب فجأة ليطاردني بالحجارة. بينما رحت أهرول في شارع كان يلفّه بعض الظلام..

أفقت مختنقا.. كانت لسعات البرد أثناء نومي ما تزال تترك أثرا مربكا في تفاصيل جسدي الذي أخذ بعد في الارتعاش.. كان الظلام يلفني، وكانت النافذة مفتوحة، وكنت خائفا.. فاكتظت الغرفة بالأشباح والصور الملعونة..كان موقفا سوداويّا. وبتهالك نهضت من مضجعي -الذي لم يكن إلا كنبة- نحو زرّ النور فضغطته لينتشر النور داخل الغرفة فيما لم أجد بدّا من إشعال سيجارة لتهدئة روعي، ولأتجاوز الموقف برمّته..

كانت الساعة تقارب الثانية ليلا، عندها عزمت على الاستحمام.. كان الماء دافئا.. ساخنا.. باردا.. وكان في كلّ أحواله منعشا.. كانت الأفكار السيّئة والمشاعر تنساب مع الماء والصابون.. كانت تتهاوى إلى اللعنة. تتهاوى بلا رجعة إلى الأبد..

لمّا انتهيت، كنت خفيفا ورشيقا رغم بعض التعب الذي كان يدبّ في مفاصلي. ورأيت في تلك اللحظة أن أعدّ قهوة ففعلت. جلبتها إلى الغرفة المركزيّة التي كانت بمثابة صالون. أين تقبع كنبتي اليتيمة المهترئة، وجهاز تلفاز قديم.. عندها أغلقت النافذة، وشغلت التلفاز، وأخذت في احتساء القهوة وحرق السجائر حتى بزوغ الفجر..

بالطبع، لم تذهب الصور والأفكار الملعونة إلى الأبد كما ظننت، فالأبد نفسه كلمة لا تعني شيئا. إنّها تشير إلى المستحيل، إذ لا شيء في حياتنا يبقى إلى الأبد.. كنت أضحك رغم الصور ورغم الخوف.. أضحك لأنّ عصا والدي كانت تطاردني إلى الأبد بالفعل.. وكنت أنتظر في كلّ لحظة أن يغافلني والدي بدخوله المفاجئ وبعصاه..

مرّ الوقت إذن، ومن الفجر وجدتني أحضن الظرف بحبّ متجها نحو المقهى.. وبعد أن أمضيت فيها سويعات اليوم الأولى، اتجهت نحو مقرّ الصحيفة، حيث تودع الأعمال. ففعلت كلّ ما طلب منّي.. فعلته

بفرح ونشاط حين بدا لي ضمن تلك المرّات القليلة أنّي شيء ما له كيان.. وفي لحظات وجدتني أنهي الإجراءات، فسلموني وصلا يشهد لي.. تناولته في ضحك لم أدر إن كان ينمّ عن فرحي أم عن سخريّتي، وشعوري الغريب بأني شخص ساذج.. ولكني على كلّ حال دسست الوصل في جيبي بفخر وارتياح، حين كانت خطواتي تقودني قسرا إلى المقهى أين أمضيت ساعات من النهار..

5

*****

ها أنا ذا في هذه الردهة الأخيرة من عمري البائس، أسوق لك أحداثا بلا قيمة حسبما طلبت مني.. ولكنها أحداث حياتي على كلّ حال.. وإذن فقد سارت حياتي بلا قيمة. وقد حاولت في سردها عليك أن أكون صادقا قدر المستطاع، وكاذبا قدر المستطاع. وعليّ الآن أن أكون صادقا، فلم يعد هناك شيء أكذب من أجله.. عليّ أن أكون صادقا ليكون حكمك صادقا وعادلا، وفهمك كذلك..

في البدء يا سيّدي كنت تافها لأقصى درجات التفاهة.. وقد توهمت في غمرة ضياعي أنّي عظيم كأولئك الذين يُنتظر أن يمسحهم القدر بمسحة المجد.. وقد عشت سنوات عمري كلّها مؤمنا بهذا الوهم الكبير..

كانت فدوى قطعة من الثلج، ونبعا لا ينضب للأمل والحبّ.. كنت صادقا ومنفعلا في تلك اللحظات التي

لم تعلّمني فيها الحياة الكذب بعد.. وكنت طفوليّ الإحساس، طفوليّ الفكر والحلم. وكنت أعتقد بوعيي الطفوليّ ذاك الذي لم يفقه بعد سخريّة القدر أنّ فدوى هي لي لا محالة..

أنا لم أجالس فدوى يوماً، ولم أحادثها سوى مرة أو مرتين.. كنت أبعد فيهما عن حديث الحبّ.

بالطبع هناك بعض الذكريات الجميلة العابرة، والتي علقت بذاكرتي إلى الأبد (الأبد مرة أخرى، ذاك الذي فقدنا الإحساس به إلى الأبد).

هناك صور نظرات مجنونة تملؤها البراءة، تبادلناها كطفلين يتحسّسان طريق الحياة.. وهناك أيضا بعض الابتسامات المتبادلة، ومساحات الحلم الضيّقة.. أمّا الباقي فلم يكن إلا كذبا كذبته. بل لعلّ فدوى لم تشعر بي أصلا، وما علمت إلى الآن أني أحبّها.. أحبّها لسنوات خلت.. لسنوات قادمة.. أحبّها إلى الأبد..

الأبد، هذه الكلمة الغريبة التي تلاحقني إلى الأبد، داخل تلك الحلقة المفرغة من المعنى.. تلك الشجرة العارية .. ذاك السراب الذي حسبه الظمآن ماء..

وها أنت ذا تقف على حقيقة عظيمة داخل حياتي التافهة.. ولتعرف الآن أنّ الحياة والقدر، وما شئت أن تسمّي حين نريد الحديث عن تلك الأشياء التي لا نفهمها، لم تجمعني يوما بفدوى..

يوم واحد كان كفيلا بأن يطفئ نار الحبّ الأول الذي لم يليه حبّ آخر..

واعتقدت كبائس أن الحياة ستجمعني بفدوى. وأنني عظيم.. عظيم ينتظر مسحة المجد. ولا أعرف إلى الآن سرّ ذاك الإحساس الغريب بأنني على موعد مع المجد.. ربما هو هذيان العظمة الذي كان يسكن خيالي، ويعشّش داخل عقلي المريض، عندما كنت أخطّ بعض الكلمات التي لا معنى لها، غير تلك الصرخة المكتومة لفزع داخلي كنت أحسّه، محاولا خنق صوت كان يصرخ بي معلنا أني أفشل ما أكون وأتفه ما أكون..

سنة خمس وسبعين، كانت الحياة تضرب لي موعدا مع الحقائق التي لم أؤمن بها يوما، عندما كنت أفرّ إلى الأمام.. في تلك السنة أعلنوا عن سقوطي في البكالوريا، وبعد أسبوع أعلنوا وفاة والدي. وفي الأسبوع الذي تلاه أعلنوا عن خطبة فدوى..

ثلاثة أحداث، كانت أهمّ ما اعترضني في حياتي البائسة.. في المرّة الأولى أعلنوا عن ضياعي حلمي في المجد، عن ضياع شيء كان يسري داخلي مجرى الدم. ولكن حلمي كان قد بتر إلى الأبد.. فأنا لن أدخل الجامعة، ولن أدرس القانون، ولن أصبح محاميا.. لم أكن أؤمن بالفرصة الثانية لذلك فقد آمنت بأن كل شيء ضاع.. وعرفت أن القدر يحكم قبضته على كل شيء حولي.. في تلك اللحظة فقط عرفت ما تعنيه تلك الكلمة البائسة التي طالما نخرت أذني.. لقد عرفت ما تعنيه بالضبط عبارة سخريّة القدر..

وضحكت.. ضحكت ملئ عشرين سنة من الوهم البائس.. ومرّ حولي الأصحاب ضاحكين أيضا فقد كانوا فرحين.. بعضهم هنّأني إذ ظنّ أني لم أكن خائبا.

وبعضهم مرّ بسلام. أمّا الآخرون فلم ينتبهوا لشيء بل ساروا وهم يفكّرون كحمقى..

فدوى أيضا مرّت بخطوات هادئة وقسمات حياديّة. فتبعها نظري ببؤس مؤمنا أنني كنت أراها تمضي بلا عودة. وأنني أراها للمرة الأخيرة، وأنني لن أراها بعد ذلك أبدا.. تبعها نظري حتى اختفت، وتوارت عني إلى الأبد..

عندها كانت دموعي تنزل دون إرادة مني.. كانت دموع وداع.. دموع حارقة وصادقة، لرجل قد أفاق أخيرا من الوهم..

كان يوما حارّا.. كان يوما صاعقا.. يوم كان عليّ أن أنتهي فيه لأبدأ..

وبخطوات متثاقلة، وضيق شديد، عدت أدراجي إلى البيت.. بالطبع كنت قد فكرت في ذلك المسير القصير في طريقة تخرجني من المأزق الذي كان ينتظرني مع والدي. مع أنّي لم أكن مباليا في الآن نفسه.. فقد تعودت

الضرب كما تعوّدت العصا. ولم يعد يفرق كثيرا أن أضرب وأنا أحلم بالمجد أو أضرب وأنا يائس تماما!!

لكن القدر وسخريّته كان يخبّأ لي ما هو أعظم من الضرب. لم أهتد لطريقة تخلّصني من المأزق. وعلى كلّ فقد سبقني الخبر، وكان كلّ شيء معدّا لاستقبالي.. فما إن وصلت إلى البيت حتى اعترضني والدي بضحكة مخيفة غاضبة كانت أكثر ما أكره فيه، وهو يقول:" لقد بشروني.. بشروني.. أحسنت، أحسنت، كنت عظيما.. كنت فخرا." تجاهلت سخريّته، ومضيت لأدخل فصرخ بي طاردا إياي.. طردني وقال:" لتبحث عن مكان آخر تبيت فيه أيّها الملعون."

كان صادقا، فقد كنت ملعونا كشيطان. شيطان أبله.. لم تقل أمي شيئا. اكتفت بالنظر في بؤس وحزن. في ما كان عليّ أن أبتعد.. أن أمضي إلى المجهول..

كانت المرة الأولى التي يكون عليّ فيها أن أبيت خارج البيت.. ولعلّها كانت ليلة فاصلة، لأودّع حياة وأبدأ أخرى مختلفة تماما عن الأولى..

بدأ الليل يحلّ على المدينة في تلك اللحظات، وكان النهار يأفل بشمسه الحارّة كعادة أيام الصيف الحارقة.. وكان عليّ أن أهيم خائبا في شوارع تملؤها البهجة..

كانت تتناهى إليّ أصوات الفرح وطبوله.. في تلك الليلة التي عمّ فيها المدينة سحر النغمات الراقصة، وقد أضيئت البيوت وعمّتها البهجة.. وكان عليّ أن أمضي إلى حيث يغيب المقصد. بالطبع، جالت في خلدي بعض الأفكار والمقترحات. منها أنّني فكرت في الاحتفال مع بعض الأصحاب الناجحين. كما خطر ببالي أن أنتحر.. لكن خوفي من الألم، وعدم اهتدائي لطريقة ناجعة قد جعلني أعدل عن هذه الفكرة!! إلى جانب أفكار أخرى لا أذكرها. ولكن المهمّ أني عدلت عنها جميعا متّجها نحو المقهى..

كان الجو حارّا، رغم أنّ الليل قد حلّ، ورغم بعض النسمات الباردة.. كان يلفني الحزن ساعتها، غير أنّ شعورا آخر قد بدأ يتصاعد داخلي ويتشكّل، ليصبح له في ما بعد سلطانه عليّ.. كان شعورا باللامبالاة قد بدأ

بعد يتملّكني. وبأنني لا أهتم.. وبدأت لأول مرة أعرف لذّة أن لا يعنيك شيئا..

لست أدري كيف بدأ شعور مثل ذاك، يتسرّب إلى دواخلي.. لكني أحسست للمرة الأولى أنّه ليس عليّ فعلا أن أهتم، وأن لا شيء يهمّ فعلا.. وعلى كلّ فقد أمضيت ليلة هادئة بالمقهى..

شيء ما غير مفهوم كثيرا كان يحرّك الدنيا من حولي. وها قد مرّ أسبوع على ذلك الحال أو نحوه. وكان الحظ قد أسعفني بقضاء بعض الليالي عند أصدقاء مختلفين..

مرّ الوقت ثقيلا ومملّا، في اليوم الأول اغتنمت فرصة غياب والدي لألتقي أمي.. وجدتها شاحبة ومثقلة. وقد حدّثتني بأنّ شيئا ما سيحدث.. قالت ذلك لأنّها كانت قد بدأت بعد تشعر بوحشة رهيبة تملؤها.. وفي اليوم الثاني كان أبي يرقد في الفراش.. هكذا روت لي أمي، وعرفت أن لا مجال لأعود إلى البيت. فعدت مشرّدا تماما في العراء.. بين الشوارع والمقهى، حيث كانت الأشياء تضيع مني إلى الأبد..

عرفت بعد ذلك أنّ أبي كان يسأل عني، ولم أهتمّ. إذ لم أكن أعرف أنّه يعيش ساعاته الأخيرة. وقد حدّثوني بأنّ حالته تسوء، فكنت أهرب بلا مبالاة خوفا منه.. من نظراته القاتلة، تلك النظرات اللائمة والمقزّمة.. وجاء الخبر صاعقا، وحال بيننا الموج.. لقد توفي والدي ولن أراه مجدّدا إلى الأبد.. كما أنّني لن أسمع مجدّدا صيحاته وتوبيخاته. ولن أتحمّل ضرباته ونظراته.. سيكون فراقا بيننا إلى الأبد..

ثمة داخلي شعور بالراحة أخيرا. وأحسست لأول مرة أنني حرّ، وأني شيء ما له كيان.. بالطبع لم أكن قاسيا لدرجة أنّ موته لم يحرّك فيّ شيئا.. فقد عمّتني ساعتها حسرة غريبة ووحشة قاتلة.. ومع ذلك فقد كنت حياديّا بائسا. حتى حين كانت أمي تحضنني، وتبكي في لوعة. كنت باردا، وكأنّ كل شيء داخلي قد مات.. مات كما مات والدي..

وأنا أخطّ إليك هذه الكلمات. وأحاول ما استطعت أن أجمع شتات ذهني الممزق، غفوت. ولمّا أخذتني سكرة الكرى، وقد هدّ جسمي تماما بفعل المرض. رأيت مناما

عجيبا لا أجد له تفسيرا، بالطبع لست من المؤمنين كثيرا بتفاسير المنامات. ولكني مقتنع بأنّه ثمة شيء يسري كالسرّ داخلها.. المهم أني رأيت بالمنام فدوى، كان حلما نقيّا وجليّا كالرؤيا.. خاصة وقد رأيته بين السحر والفجر.. رأيت أنّي في مكان ما، وإذا بي ألتقي فدوى فعزمت على تجاهلها. ولا أدري سرّ ذلك.. كنت أعرف ساعتها أنّ بيننا مسافات طويلة لنلتقي. وأنّ كل شيء مضى مع الزمن لحاله.. لكن فدوى استوقفتني، وأمسكت يدي، تصوّر.. وراحت تحدثني وأخذت أحدّثها. ما أجمل ذلك الشعور بأنّك حرّ أخيرا، وأنّك تلتقي أحبّ شخص إليك.. فدوى كانت تحدثني عن كسر بإحدى يديها، وإحدى ساقيها أيضا.. لقد عاينت ذلك بنفسي.. في الحلم طبعا!!

رغم ذلك كانت تضحك، تضحك وتركض بخفة. لقد بدت لي صغيرة كأول عهدي بها.. حدثتني عن حياتها بعدي، حدثتني عن أمور كثيرة لا أذكرها.. لكني أذكر أني في الحلم، كنت موقنا أنّها لا تعنيني أبدا وأنّ حديثي معها لم يكن غير مجاملة نجريها حين نريد

الظهور بمظهر لائق لا يسيء إلى الطرف المقابل حين تلقي به الصدف إلى لقائنا، وقد ذهبت عهود الودّ معه وحلّت مكانها عهود الجفاء تماما كما هي علاقتنا بالغرباء.. لمّا نحن كذلك، عرفتني فدوى بشخص غريب لم أتبيّن علاقتها به.. وأفقت.

لقد خفّف الحلم على بساطته آلام جسدي المنتفض الموهن بالأوجاع.. ورغم ذلك، كم اشتهيت أن أدخّن. لكن هيهات، فقد كان الأطباء من حولي قد حرّموه عليّ..

عاد الحبّ نارا مشتعلة كأول عهد. وبكيت.. بكيت لأني أحسست أخيرا أني جاهدت ضدّ الوحدة، وها أنا أهزم في سخرية. لأنّ قدري كان أن أمضي وحيدا ومنهكا.. ثم ألقى في القبر كما يلقى الطرد في درج مهترء قديم..

لقد ظللت أخط لك هذه الكلمات الكثيرة، والتي لا تقول شيئا محاولا أن أجلي حقيقة واحدة.. وهي أني غريب وسط الغرباء.. وسط أناس كثيرين لا أتقاسم شيئا معهم. وهم أيضا لا يتقاسمون شيئا معي..

وجدت نفسي بعد وفاة والدي، وحيدا وسيّدا. وكنت بلا شيء.. وهكذا مرّ أسبوعي الأوّل، بلا شيء. أحرق السجائر وأنام. وكانت أمي تقول:" والدك كان سيّئا، لكن حضوره أفضل من غيابه." لقد كانت صادقة، إذ أصبحت مسؤولا عنها بلا جدوى. فأبي الذي حطّمني كإنسان، لم يصنع مني رجلا بالمقابل..

في غمرة كلّ ذلك، علمت بخطبة فدوى.. وعليّ أن أعترف أنّه خبر لم يكن ليعنيني البتة. لولا حماقة عقلي المريض. فشعرت أن ضياعها هو آخر حلقة ضمن تلك الأوهام التي نسجتها، وعشت وسطها. وها هي تتهاوى.. تتهاوى إلى الجحيم واللعنة..

عرفت أنني بالفعل غريب عن حياتي.. غريب عن المعنى الذي كان يسري داخلها.. كانت فدوى نقطة مركزية لا يمكن الحياد عنها.. كنت أراها رأسا لكلّ شيء. وها قد انتهى ما توهمت.. انتهى إلى الأبد..

6

*****

لست أدري ما عساك تستنتج من هذه الخلجات المهزوزة التي ترجمتها إلى كلمات.. والذي أعرفه أنّي بحاجة إلى الكلام، وأنّك بحاجة إلى السماع. وبما أنّي صرت أبكما، فليس لي من يدافع عني غير الكتابة. ولك بدل السماع القراءة..

لكني حدثتك قبل أن أصير أبكما، أني لا أريد الدفاع عن نفسي. بل أريد أن أحمل أوزاري كاملة، وأتحمّل لعنتي إلى النهاية.. والواقع أنّ الاعتراف هو سيّد الأدلّة كما يقول رجال القانون. وأنا اعترفت.. اعترفت بقتلي لمريم، فماذا تريدون بعد؟ ها أنا ذا أطالب بإعدامي. فليكن الحكم عادلا أو جائرا.. فلقد حسم أمري مع الحياة. فلِمَ لا يكون حكمكم أسرع من الموت؟ ذلك الذي يركب صهوة المرض القاتل..

وما يهمّني الآن إن حكمتم بالعدل أو بالجور، ما دام القدر قد حسم الأمر. وعن قريب تزفر مني زفرة هي النفس الأخير فيّ.. كم تعشقون التفاصيل، وتتعللون بمطاردة الحقائق التي لا تنفعكم. ما دامت حقيقة واحدة قد ساقت الجميع وراء سلطانها..

لست أدري أيّها الطبيب إن كنت مذنبا أم لا.. فأنا تخونني التفاصيل التي تنبؤكم عن الحقائق الأكيدة.. لست أدري إن كنت قد قتلت مريم، أم أنّها انتحرت.. كل ما أعرفه أنّ الكتابة الآن فرصة للكلام، ذلك الذي حرمت منه أخيرا. وقد قال المحامي أنّه يثق ببراءتي، فكيف يصحّ هذا إن كنت أنا نفسي غير واثق؟ بل متأكد من إثمي، كتأكّدي من أنّ الموت هو المعنى الحقيقي الوحيد للحياة!! أرأيت كم يفتقر كلامي إلى المنطق؟ فكيف تنتظرون مني أدلّة منطقية على براءتي من خلال هذا الكلام..

وهلّ يهمّني الآن أن أكون نقيّا أمام الناس، في الوقت الذي فقدت فيه الإحساس بهذا النقاء أمام نفسي؟ وما ينفعني الإحساس، إن كنت سأفقد الإحساس بكلّ شيء

بعد مدّة وجيزة.. بل إني قد فقدت بعد الإحساس بكلّ شيء.. وما عساكم تجدون في حياتي السخيفة؟

لهذا أرى أنّه من السخف حقا أن أراهن على شيء منته. والغريب أنّك تشاركني هذا الرهان.. وأنا أنزل عند رغبتك، لأنّها المرة الأولى تقريبا التي أجد فيها من يعطيني ثقته. ومن يراهن عليّ. داخل حياة عشتها لم أر فيها غير من يحتقرني ويذيقني ألوان المهانة..

أتفهّم أنك من ضمن أولئك الذين يؤمنون أن ذكر المرء وشرفه مهمّ بعد الموت أيضا.. أتفهّم أيضا أنّك تؤمن بأنّ الحياة مقاومة إلى آخر نفس.. أتفهّم أيضا سعيك كعالم وكطبيب لفهم ما جرى وفهم ما تسميه الدوافع الكامنة، وما إلى ذلك من الكلام صعب الفهم.. أتفهّم كذلك رغبتك في جعلي حيّا بعد موتي من خلال كلمات.. أتفهّم سعيك لجعلي شريفا وبريئا كما أتفهّم سعيك للعدالة والحقّ لأنّ كل ذلك من الحياة.. كلّ ذلك هو الحياة، أتفهّم إذن حبّك للحياة تلك التي رغم تجاذباتها داخلي لم تعد تعنيني.. تلك التي لم أعد أحبّها..

ورغم ذلك، فإني لمّا أردت أن أنجح رهانك وجدتني ألفّق أكاذيب.. أكاذيب بائسة لأبدو شيئا ذا قيمة في نظرك.. ثم عزمت أن أكون صادقا. لأنّك كنت تردّد دائما أنّك تريد الحقيقة، تلك التي لا أعرفها.. فشرعت أروي ككاتب مخبول، لم ينل فرصة لإثبات قدرته. وها أنا ذا قد رويت لك جانبا أساسيا وسخيفا من تفاصيل حياتي المشتتة..

لقد حاولت في البداية أن أكتب بلذة. فانسقت كروائي في خطّ الكلمات وتنميقها.. ولمّا أبانت التجربة عن فقرها، لم أجد غير أحداث حياتي البائسة لأنهل منها. فبنيت من ركامها بناءً شددت عليه بخيالي الذي أفاض بالتهيؤات.. غير أنّك كشفت لعبتي فلم أجد بدّا من الاعتراف. وكان ذلك فسقت لك أحداثا من حياتي بكل صدق، إن لم ينخر الجنون عقلي..

وأنا إلى الآن لا أفهم ما الذي تريده مني. فأنت لا تفعل شيئا غير أخذ الأوراق، وتزويدي بالأوراق الجديدة. مطالبا إياي بالكتابة. حتى أدمنتها بدل السجائر..

كان مساءً غائما على غير عادة المساءات من شهر أبريل.. وكان الغيم قد انتشر، وغطّى السماء منذ الصباح.. في ذلك الصباح وجدت نفسي كعادتي مضطرّا إلى النهوض باكرا لأفتح المتجر. هو صباح ككلّ الصباحات في حياتي لولا الغيم.. بالطبع لا أذكر تفاصيل ذلك النهار، وإن كان لا يخرج عمّا ألفه أيّ شخص، ولا عمّا ألفت.. فقد احتسيت قهوتي، ودخنت سجائري، وقبّلت رأس أمي. ولم أنس أن أقول لمريم أحبّك.. ومضيت إلى عملي هكذا بكل بساطة.

المساء كان غائما.. الجو كان مضطربا.. أمي لم تكن هناك.. أنا كنت قد عدت.. التفاصيل الأكيدة تخونني.. التيه يغزو كياني.. أعصابي تخور، وتتقاذفني أمواج الشك..

أدركت إذن أني شخص ساذج أخيرا.. لم لا تخرس هذه الأصوات داخلي إلى الآن؟ قتلتها؟ .. لم أقتلها؟ فعلت أم لم أفعل؟ أذنبت.. لم أذنب..

بعد ذلك جاءت الشرطة وأخذت مريم الممددة.. كنت باردا وهادئا.. كنت ساكنا.. شيء ما كان يدفعني إلى السكوت.. إلى السكون.. إلى الموت.. وها قد أخذوا مريم ليلقوا بها كالطرد الخائب في درج جديد. ويغلقون عليها بإحكام لتنسى إلى الأبد.. ولن تكون منذ اليوم، غير ذكرى باهتة الملامح..

جاءت أمي فناحت وبكت. لكني كنت حياديّا بائسا.. وأقبل الناس يهرعون، يعزّون ويسألون..

حققت معي الشرطة فلم تظفر بشيء.. قلت إنّ مريم انتحرت.. اختارت الموت على عالمنا الملعون.. هي اختارت أم أجبرت؟ سؤال لا أملك إجابته.. لكنني قررت بعد ذلك أن أحسمه. فاعترفت بعد حفظ القضية، بقتلي لمريم..

إن لم أكن قد قتلتها فعلا، فقد قتلتها ببرودي.. قتلتها بموتي أنا قبل موتها هي.. بفعلي الجاف الذي لا يعبّر عن شيء سوى الاستسلام والعدم..

قتلتها لأني قتلت الحياة داخلي قبلها.. لأن شيئا ما أراد لي أن أكون كذلك، رسما باهتا لكيان بارد.. شكلا أو تمثلا لهيئة كالظرف الفارغ..

مريم ملّت الحياة مع ميّت. فاختارت الموت على الحياة معه..

ولكني لا أثق في ما سردت.. لذلك سأعيد من البداية لعلّي أكون دقيقا، وسأحاول أن أكون تفصيليّا. فأنت تريد التفاصيل الدقيقة لتصل إلى الحقيقة الأكيدة، تلك التي لا أعرفها..

كان مساءً غائما على غير عادة المساءات من شهر أبريل.. وكان الغيم قد غطى السماء منذ الصباح.. في ذلك الصباح، خرجت كعادتي لأفتح المتجر.. هو صباح ككلّ الصباحات لولا الغيم..

كيف ماتت مريم؟.. سكين شقّ أحشاءها فصارت هامدة.. صرخة مفزعة أطلقتها.. أنا كنت في الصالون.. هرعت إليها.. بحياديّة واضحة حدّقت بها طويلا.. كنت حياديا دائما.. ذهني كان مشتّتا.. يقتلني

برودي.. التفّ الناس حولي.. ثمّ جاءت الشرطة.. حققوا معي ولم يظفروا بشيء.. لم أحتمل رتابة حياتي بعدها فسلمت نفسي مدّعيا أني قتلتها..

هل أبدو تفصيليّا سيّدي؟

حسنا لا تقلق سأعيد سرد ما وقع.. أنا عدت إلى المنزل.. أتذكّر بعض الأحداث، لكني لست متأكّدا تماما من وقوعها.. طلبت مني مريم أن أساعدها ففعلت وكنت سعيدا.. كنا نلهو ونتبادل الدعابات.. فجأة سكن الجو، وعمّنا الصمت.. كنت أقطع الخضار إلى قطع. وسافر عقلي فغزاني القلق والضجر والتوتر.. وجال دماغي بعيدا.. لا أعرف بالتحديد أين كان يجول، لكني أذكر تفاصيل التوتر.. أذكر إيقاعه المتسارع داخلي.. اقتربت مني مريم، وأحسست على نحو غريب بجسمها وأنفاسها تقتحمني من الخلف.. وفي سرعة إيقاع التوتر الساكن فيّ، التفتّ غارسا السكين في أحشائها..

صرخت مريم، في ما كان يغزوني الذهول والبرود.. وبينما كانت تتهاوى، أمسكت المقبض بيدها وأسلمت.. سكنت إلى الأبد..

في التحقيق، قلت إنّ مريم افتكت السكين مني وغرسته داخل أحشاءها..

حدّقت مريم بي في نظرات أخيرة لائمة ومتسائلة.. متألّمة سكنت، في ما التفّ حولي الناس..

أبدى الناس تأسّفهم وتعاطفهم. فيما كنت باردا، ساكنا، ذاهلا.. كنت أحسب نفسي وسطهم في ما كان فكري يجول، وقد غزاني الذهول..

7

*****

يوما ما سأعرف.. يوما ما سأحيا.. يوما ما سأموت. هكذا بكل بساطة سأقول لقوس قزح جمالك لم يغرني كفاية.. وسأقول لورود الأرض عبقك لم يسحرني كفاية.. لا لذّة في الموت، لا شبع في الحياة.. لا شبع في الموت، لا لذّة في الحياة. هكذا يكون النشيد الأصدق.. لمَ لاحقتني أيّها الحظ العاثر إلى زنازين حلمي الباردة وقتلتني.. ولماذا تابعت أيّها البؤس أخباري الزائفة.. ها أنا ذا أحيا فقط لأحيا. وها أنت ذا بعيدة وزائفة.. كومة عظام نفخ فيها صانعها، فحرّكَها لوقت ثم عادت كومة عظام.. هل هكذا إذن يحدّث الوجود أخبارك؟

يا له من وجود شبحي مؤقت لا قيمة له. وإذن لا معنى لحياتك مطلقا. سوى أنّك خلّفت خسرانا ثانيا هو هذا الأنا من بعدك..

في الزنزانة الباردة، حيث البرد والرطوبة والقسوة.. حيث كنت بلا شيء، سوى جسد مخرّب منتفض.. حيث الوحدة والفراغ.. الظلام وانعدام الأمل..

في يوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة تسع وتسعين وتسع مائة وألف، كنت في زنزانتي يحدوني الأمل في لقاء وجه أمي من خلف نافذة حديديّة.. تأخرت أمي عن زيارتي، في ما لم تتعوّد أن تتأخر.. كانت تزورني كلّ شهر مرّة. لكنها لم تأت هذا الشهر.. عمّني حزن على حزن، ثم عذرتها ورضيت بما قُسم لي من الأقدار القاسية.. حزرت أنّ أمي ملّتني أخيرا.

لكن أنّى لي أن أعرف أنّ قلب الأم لا يملّ من الحب والعطاء؟

انفتح باب الزنزانة المدجّج بالأقفال، وألقى عليّ الحارس نظرة الرحمة. نظر إليّ بإشفاق لم أعهده منه، ثم غارت عيناه في الأرض وقال:" ستصحبنا إلى الخارج."

لم أتوقع حرارة الصدمة. كما أنّ رحمة وشفقة من رجل مثله لم أعهده إلا قاسيا أثارت داخلي الشكوك القاتلة، ولكن ما جاء من أجله كان أكبر من شكوكي.. صحبني إلى الخارج في ذلك الصباح البارد، وما لبث أن تلقفني رجال الأمن، مركبين إياي داخل الشاحنة.. وخرجت إلى العالم، لا لأحيا بل لأموت.. توقفت السيارة أمام منزلنا، لأجد الناس مصطفين، جالسين في برود وحزن.. أنزلوني فهرع إليّ أقاربي يعزّون، متأسفين وباكين.. لقد ماتت أمي.

دخلت لألقي عليها نظرة أخيرة.. نظرة الوداع الأخير المرّ.. كانت قدماي لا تقويان على حملي.. لم يستوعب عقلي المجنون أن أرى من وهبتني الحياة، تلك التي كانت على الدوام مليئة بالحب والبهجة.. تلك التي ظننت أنّ الموت يستحي من أن يأخذها.. لم أتصور أن أراها ممددة بلا حياة. كمصرع طائر، كحبّ عابر، كشجرة مقطوعة، ككنيسة مهجورة.. وأنّها تُنسى.. تنسى كأنّها لم تكن..

الفصل الثاني:

تحقيقات وتساؤلات

رواية السيد شكري سلمان المحامي

1

*****

بقي على جلسة المحكمة ثمانية أيام، وكان عليّ أن ألتقي الطبيب النفسيّ المشرف على لجنة مؤلفة من سبعة أطباء للنظر في الحالة النفسيّة للمتهم، والحكم من ثمة، وتقديم تقرير مفصّل لهيئة المحكمة في ما إذا كان السيّد المتّهم يعاني اضطرابات نفسية أو ما شابه ممّا يكون من شأنه التأكيد على اقترافه للجريمة تحت تأثير مرض يجعل فعله خارجا عن الإرادة التي يتمتّع بها الإنسان الطبيعي.. أي النظر في ما إذا كان المتهم قد اقترف جريمته وهو في غير كامل قواه العقليّة..

كان البهو المؤدي لمكتب السيد الطبيب النفسي رئيس اللجنة الطبية، طويلا ومتوسط الاتساع. ثمّ لا أعرف لماذا صار ضيّقا كلّما تقدمت.. رافقتني إحدى الممرضات في ذلك البهو الطويل الذي سرت فيه، وقد أحاط بي البياض حتى تمكّن بي فشعرت برهبة موحشة، وفرغ ذهني على نحو عجيب.. سارت برفقتي

تلك الممرضة، وما لبثنا أن انعطفنا انعطافات متعدّدة في ما يشبه الدهاليز أو المتاهة.. ثم وصلنا إلى بهو طويل ضيّق، في آخره باب خشبي أزرق بالكاد يظهر. قالت الممرّضة:" تفضّل من هنا، الدكتور في انتظارك."

ابتسمتُ في وجهها كتعبير عن شكري، وتقدّمت وحيدا في ذلك المسار الطويل الضيّق الذي لم يكن يتّسع إلّا لشخص واحد. فشعرت وكأنني أقاد إلى زنزانة حتى وصلت أمام باب المكتب، ثمّ طرقت الباب ودخلت.

كان المكتب متواضعا إلى أبعد الحدود؛ طاولة خشبية في آخره إليها كرسي مجلّد. وعلى الطاولة ملفات ووثائق ومطبوعات وأقلام.. وكرسيّان خشبيان أمامها. أمّا على اليمين فقد انتصبت خزانة حديدية متواضعة كتلك التي توضع في السجون، عليها قفل حديدي بدائيّ..

كان الدكتور كهلا قد اقتحمت الشيخوخة عمره بعد.. شعر رأسه أبيض، وتميل قسمات وجهه إلى الترهّل.. كان قصيرا وممتلئا.

كان جالسا على كرسيّ المكتب المجلّد فهبّ واقفا عند دخولي، وما إن وقفت أمامه حتى صافحني متصنّعا ابتسامة ديبلوماسيّة، وهزّني قائلا:" مرحبا." ثم جلس وأذن لي في الجلوس مضيفا:" تفضّل."

جلست وقلت:" شكري سلمان المحامي."

- تشرفنا، في ما أستطيع أن أخدمك.

أضفت موضّحا:" أنا محامي السيّد محمود عوينات المتّهم بقتل زوجته المدعوّة مريم الصافي. لقد حصلت منك على موعد بعد مهاتفتك، واليوم هو موعدي معك."

قال الطبيب وقد نشطت ذاكرته:" آه، تذكرت.. كلي أسف. نعم السيد محمود عوينات، يرقد في هذه المستشفى منذ أربعة أشهر. حوّلته إدارة السجن إلينا

إثر تعكّر حالته الصحيّة، فهو مصاب بمرض خبيث وقاتل." وزمّ شفتيه تأسّفا أعقبه بابتسامة ديبلوماسية مألوفة في مثل هذه اللقاءات. فقلت:" نعم ليس فقط تعكّر حالته الصحيّة الجسديّة، إنّه مريض نفسيٌّ أيضا.. لقد قدّمنا بصفتنا محامي الدفاع طلبا في استئناف الحكم الابتدائي، والمرض النفسي مستند هام في قضيتنا."

ردّ الدكتور بلهجة أقرب إلى السخرية:" ملف السيّد محمود متشعب، إنّه لا يهمّ رجال القانون وحدهم بل الأطباء أيضا. وربّما رجال الأدب لاحقا.."

لم أفهم ما يعنيه الطبيب بالحديث عن الأدب، لكني خمنت أنّ "محمودا" قد كتب بعض الخواطر الجديدة في المستشفى مستعينا بجوها الساكن، ومستأنسا بالكتابة في وجه عزلته ووحدته..

وعلى كلّ فقد تجاهلت ذلك، وخاطبته بهدوء:" هل يمكنني الحصول على نسخة من التقرير الطبي؟"

تناول الطبيب الملفات التي على طاولته بيديه، وأخذ يقلّبها باحثا ومردّدا بصوت منخفض كمن يهمس:"

محمود عوينات.. محمود عوينات.. محمود عوينات.." حتى أتى على جميع الملفات، ثم نفض يديه، وأضاف:" ملفّه ليس على طاولتي للأسف.. على كلّ نحن سنقدّم التقرير في الآجال لهيئة المحكمة. وأنت عليك أن تحصل عليه من هناك.. فأنت رجل قانون وتعرف هذه الأمور.. نحن مستأمنون على أسرار المرضى والمحكمة معا."

قلت:" طيب، هل يمكن أن تطمئنني بشكل وديّ؟" ردّ وقد انتصب واقفا، وقد مدّ يده مصافحا وخاتما اللقاء:" عساه يكون خيرا.."

صافحته ضجرا، بينما كنت أتصنّع الابتسام واللطافة، وقلت:" أشكرك." ثم غادرت المكتب..

كان عليّ أن أسير مجدّدا في ذلك المسار الضيّق المزعج. لكن ليس هذا كل شيء.. لقد كان عليّ أن أتيه داخل تلك الدوامة من الدهاليز، ويقتحم بصري لون الغرف الزرقاء المغلقة.. كان لونا أزرق لامعا. وكان البياض يكتنف جسدي النحيل ويحيط به ككفن كبير..

انعطفت يمينا ويسارا، وغزتني تفاصيل المكان الكبير المتشابهة.. ولقد تهت أخيرا، فعمّني الهلع والضجر من هذا المكان البغيض وتساءلت:" كيف تسنّى للعاملين هنا حفظ تفاصيل المكان الغريب والتعايش معها؟"

هدّني التعب، فألقيت ببصري ناحية يميني إذ بدت لي قاعة في ما يشبه البهو. مفتوحة من الجهتين عند مدّ البصر.. ويبدو لك الفراغ المربك حين تنظر. وعلى جانبي القاعة كراسي زرقاء في ما يشبه كراسي المحطّة..

تقدّمت نحو الكراسي، وجلست على أحدها بتهالك.. اختلطت عليّ رائحة المرض برائحة الدواء، فشعرت بالغثيان، وغزا رأسي دوار مقرف.. يبدو أنّه لا راحة في هذا المكان. لكن كان عليّ أن أصبر حتى تسترجع عظامي الدفء والنشاط، رغم أننا كنا في الثاني من شهر جويلية الحار لسنة تسع وتسعين وتسع مائة وألف.. كنت محتاجا أن أسترجع أنفاسي، فقد اختنقت من هذا الجو المعفّر بالكيمياء واللامبالاة.. كان شيئا ما ينتشر في الجو كغاز خانق. وكانت قاعة الانتظار تلك

فارغة.. لم أكن أرى غير البياض والزرقة، لم أكن لأرتاح.. لقد كنت أزداد اختناقا.. لقد نسيت تفاصيل العالم في الخارج. إنّه شيء مربك أن تكون معزولا عن العالم، وسجين متاهة بيضاء وزرقاء. لا ألوان أخرى، ولا ضجة للعالم هنا.. فقط ذلك الصمت والضياع..

تحاملت على نفسي محاولا الوقوف. كان ثمة ما يشدّني قصرا إلى العذاب، كأنما استسلمت أخيرا لهذا الموت. وبحركة مقاومة أخيرة، نهضت متحديّا الفراغ.. وتقدمت نحو الجهة المقابلة بتهالك، وكانت الرطوبة تقتحم جسدي النحيل.. كان مكانا لا يعرف الشمس، لا يعرف النور، رغم نافذة بلورية مستطيلة ومغلقة، انتصبت في آخر القاعة بلا فائدة. إذ علّقت في الأعلى كوكر طائر، فزهدت فيها الشمس وهجرتها..

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحا، فيما كانت المستشفى كلّها تغزوها الرطوبة والعزلة.. تقدمت حتى وصلت العتبة الثانية للقاعة منفتحا من جديد على دهاليز المتاهة والجحيم..

ارتجفت قدماي بشدّة تتصاعد، وكنت أقاوم محاولا الخروج وإنقاذ نفسي.. كان أمامي أخيرا مجموعة مختلطة من الأطباء والممرضين. لم ينتبهوا إليّ.. كانوا يتحاورون بفضاضة كصراع ديكه ودجاج.. لم أتبيّن غير بضعة كلمات من حوارهم، فقد كانت أصواتهم عالية.. وكان الصدى يأخذ تلك الأصوات لترقص بحريّة في الخواء واللعنة، محدثة ضجّة أشبه بقرع الطبول.. استندت إلى الحائط متحرّكا نحو الأمام. فقد خارت قواي أخيرا. وظللت أتقدّم بصعوبة بالغة كمريض بائس.. اختفى الأطباء والممرضون في ردهات المتاهة دون أن يلحظوني حتى، ما عدا واحد.. التفت وهو يهمّ بالالتحاق بهم، فرآني متلكّئا في مشيتي..

هرع نحوي قائلا وقد مدّ يده:" استند عليّ، أرجو أن تكون بخير.. هل أنت بخير؟"

أومأت برأسي مجيبا، وحينما كنت أتهيأ للكلام كان لساني عاجزا كأنما ألجمت بلجام أو صرت عاجزا عن النطق. فاتكأت عليه وسرت صامتا لا أنبس بينما

استرسل هو في الكلام مثرثرا قال:" المستشفى واسع وكبير.. لكنه منظم بشكل دقيق. نحن نعمل من أجل راحة المرضى لكنهم لا يشفون غالبا، بل نحن الذين نمرض بالمقابل.. أنا كممرض أبذل قصارى جهدي. ليس من أجل إرضاء المرضى فقط، بل من اجل إرضاء المسؤولين أيضا.. أعمل لعشر ساعات في اليوم، رغم أني مطالب بثمانٍ فقط.. علاوة على الساعات الإضافية، لكن لاشيء يعجبهم.. دائما لا يرضون، وأنا أحاول أن أرضيهم على حساب وقتي وبيتي وصحتي. لكنهم لا يرضون.. الرضا نعمة من نعم الله قلّما تجدها في زماننا فلا أحد يرضى، أتدرك؟ كلنا نطارد شيئا ما، معنى ما لحياتنا لا ندركه أبدا.. ففي نهاية الرحلة المتعبة لا نجد معنى ولا نخلّف ذكرى، بل نجد الموت. فننتهي في عذاب وصمت.. بالمناسبة، ما هي مهنتك؟

كنا قد قطعنا مسافة لا بأس بها، ضمن مسار طويل مستمرّ هذه المرة فلا دهاليز ولا انعطافات.. هذا الممرض يعرف الطريق أكثر من أيّ واحد في

المستشفى. لقد جنّبني دوران الانعطافات.. كنت في ذلك المسار قد بدأت باسترجاع بعض أنفاسي فقلت بهدوء أقرب إلى اليأس:" محام أنا محام"

رنّت الكلمات في أذنيه كالسحر فعاد للثرثرة:" محام، ربّما كنت نقابيا.. النقابات تعتمد على المحامين، لدينا قضية طرد تعسّفي، إذ طرد عامل يعمل بهذه المستشفى قبل شهرين.. يومها خرج عن طيبته ووداعته، ونبح ككلب مسعور.. قال إنّه أفنى صحّته، وباع جسده من أجل المستشفى.. ثم هدّد المدير رأسا، وقال إنّه سيشكوه للنقابة. والنقابة ستعيّن له محام.. ألست أنت المحامي؟

تنفست الصعداء أخيرا، فقد خرجت إلى الشمس.. صرت في الخارج بعيدا عن متاهات تلك الدهاليز المقرفة لذلك وجدتني أضحك من تلك الثرثرة قائلا:" لا، لست محاميه."

هممت أن أشكره وأغادر، غير أنّي تراجعت مفكرا في استغلال مرض التطفل والثرثرة لديه. فقلت وأنا أدسّ ورقة مالية في يده:" ألست تعرف مريضا يرقد هنا،

يدعى محمود عوينات." ردّد، وهو يحاول التذكر:" محمود عوينات، محمود عوينات.. عوينات.. عوينات.."

فأضفت:" حوّلته إدارة السجن إلى هنا.. عمره يتجاوز الأربعين ببضع سنين."

قال الممرّض منتصرا:" الآن عرفت.. لا شكّ أنّه يرقد معهم في القسم الخاص بالسجناء، إنّهم خمسة. وهو أحد هؤلاء الخمسة ولاشك، إن كُنت متأكّدا من أنه يرقد بهذه المستشفى. حسنا، بإمكاني مرافقتك نحو ذلك القسم. وهناك سنتصّرف ونتعرّف عليه.. أترغب بزيارته؟

قلت بلهفة:" طبعا، من المؤكّد.. لكن عليك أن تكون دليلي في تلك الدهاليز والمتاهات."

ردّ الممرّض وهو يفرك الورقة النقدية بيده، ويدسّها في جيبه:" بكلّ سرور."

وأضاف:" لا أحد يعرف أسرار هذه المستشفى ودواليبها مثلي."

سرنا مسارا طويلا داخل المستشفى.. كانت فضاءً واسعا وكبيرا، كمدينة أو كغول.. سلكنا طريقا طويلا من الأرض الصخريّة، وكانت حولنا يمينا ويسارا أشجار فارعة الطول. ضخمة أحيانا، ونحيلة أحيانا أخرى.. وفي التفاتة سريعة، بدا لي وكأنني أعبر غابة حيث أحاطت بنا الأشجار الكثيفة على مساحة ما يقرب من هكتار. وكان صاحبي الممرض يثرثر بكلام كثير، بينما كنت أنا تائها وضجرا.. ثم انتصبت أمامنا بناية عالية مؤلفة من أربعة طوابق على مساحة ألف متر على ما يبدو..

في الأسفل، ربض ما يقرب من عشرين سيارة خمنت أنها للأطباء..

دخلنا المبنى، وإذا بصاحبي يتنقّل داخله بخطوات واسعة، محيّيا كل من اعترضه ببشاشة وثرثرة، بينما كنت أتبعه كأبله. ثم ما لبثت الدهاليز والمنعطفات أن

اقتحمتنا من جديد.. شعرت بدوار خفيف، إذ غازل ذاكرتي نفس كابوس الرحلة السابقة. فسرت كأعمى لا يدري في أيّ مكان يُسار به.. وهكذا حتى كنّا أمام جناح ضيّق، كُتب على واجهته؛ قسم خاص بالسجناء.. وكان على الباب شرطيّان واقفان. فتوقفنا أمامهما، وبطريقة أكثر عمقا، كان صاحبي يثرثر ملقيا التحيّة على الشرطيين ببشاشة بالغة وتملّق واضح. حتى أنّهما لم يجدا فرصة ليسألاه عن شأننا، بل تركانا ندخل دون أن نطلب إذنا حتى. وقال أحدهما بحزم:" لا تتأخرا."

عبرنا ذلك البهو الطويل، ثم لاح لنا عن اليسار مكتب مفتوح. فتقدّم صاحبي نحوه وقال:" اتبعني." فتبعته..

دخلنا ذلك المكتب، وتراءت لنا تلك الموظفة البدينة، ذات الخدّين المنتفخين والعينين الغائرتين وسط الدهون.. تجلس على كرسيّها الخشبي المتواضع، والذي كان يتوسل إليها من فرط الضغط المسلط عليه، وقد فاضت عجيزتيها على جانبيه ككتلة عجين كثيفة ..

وكعادته في الثرثرة، لم يترك صاحبنا لتلك البدينة مجالا لتفلت من ربقة إلحاحه السخيف.. قال لها في ما أذكر:" أهلا، أهلا بنور الصباحات، وقمر الليالي الرائقات[1].. هذا المكتب لا قيمة له، لولا نورك. كيف الحال يا زهو البال؟"

ضحكت المسكينة المخدوعة، وقد نفشت ريشها غرورا كطاووس، حين بدت لها نفسها كأميرة، يتزلّف لها خادم فطن..

مال صاحبي الممرّض عليها، وتمتم بكلام غير مفهوم ثم التفت إليّ وقال:" ما اسمه؟"

قلت كمن يطلق رصاصة:" محمود عوينات."

فتحت الموظفة البدينة ملفّا أمامها، ومرّرت سبابتها تتهجى الأسماء. ثم قالت ببرود:" محمود عوينات، تم نقله إلى العناية المركزة منذ يومين.. لقد دخل في غيبوبة."

---

[1] - الأصل الليالي الرائقة، ولكن كتبت بصيغة الجمع للإشارة إلى السجع الذي تعتمده الشخصية في المغازلة والتملّق.

ردّدت ببلاهة من فرط صدمة المفاجأة:" غيبوبة!!" وأضافت الموظفة:" إنّه مريض بالسرطان، ومع الجو الذي عايشه في السجن، زادت حالته تعكّرا وسوءً."

قلت وقد ضجرت:" ليكن الرب معه.."

ودّعنا الموظفة شاكرين، وكان على صاحبي أن يقودني داخل دهاليز تلك المتاهة إلى الخارج. كما كان عليه أن يسلك معي ذلك الطريق الصخري، طريق الغابة.. وعلى باب المستشفى الرئيسيّ صافحته مودّعا وشاكرا. بينما قال هو وأنا أركب سيارتي:" أنا في الخدمة دائما وأبدا، أبدا دائما.."

انطلقت السيارة بي، وأنا أردد ببلاهة لا تنمّ عن شيء:" دائما أبدا.. أبدا دائما.."

2

*****

كان يوما من أيّام يناير البارد، وكان الغيم ينشر رماديّة لونه على مدينتنا الصغيرة التي لم أكن متأكّدا من استحقاقها اسم مدينة.. إنّها بلدة متواضعة يكتسحها البؤس والموت.. كانت ساكنة كجثّة. كانت مدينتنا بلا حدائق، وبلا أزهار.. بلا مسارح، بلا حياة. الشيء الوحيد المبهج في مدينتنا هي تلك الأشجار التي ورثناها عن الأجداد، والتي تحدّثك بشموخها وصبرها عن زمن مضى.. الأشجار تنسجم مع جو المدينة البارد. فهي صامتة وراضية، تسمح للريح أحيانا باللعب بأغصانها فترقص أوراقها رقصا خفيفا يشبه رقص عجوز يعنّ لها إضحاك أحفادها..

مدينتنا لا تثرثر ولا تلعب.. إنّها تقدّم لك فقط ما تحتاجه لتبقى على قيد الحياة.. الحياة التي استحالت موتا مؤجّل التنفيذ.. مدارس يتيمة، عيادة طبيب، مستشفى صغير، محلات بقالة، محلات القصابين وبائعي الدواجن. ثم لا

شيء يشير إلى الحياة عدا مقاهي يضاهي عددها عدد البيوت.. تلك المقاهي التي تقتل الحياة فينا، المقاهي التي تحضنك لتموت في صمت، وفي لهو بائس..

مدينة الجنائز تلك، حتى في الأفراح التي يعمّها صخب الملفوظين على قارعة طريق الوجود، المنسيّون على هامش الحياة.. حتى أفراحهم يُقتل الفرح داخلها. فما أندر الأعراس التي لم تنقلب مأتما، وما أقلّ الفرحين في مدينتي..

بلدتي بائسة ولاشكّ، ونحن قوم لا نعرف حتى كيف نفرح.. لأننا لم نولد من رحم الحياة، بل من رحم الموت والخيبة..

في بلدتي الصغيرة كنّا نبتاع الجعة جهارا، ونتوسّل شراء الحليب خلسة..

كنّا ومازلنا نتبوّل على الجدران كالكلاب..

كنا نستحي أن نحبّ، وأن نفكّر، وأن نحلم..

كنا بلا خيال وبلا طموح

كانت تلك المدينة الملعونة تقتلنا كل يوم مرّات ومرات

كنا نضحك من بؤسنا أوقاتا وأوقاتا، كان الآباء يكدحون.. يكدحون بلا فائدة من أجل رغيف الخبز الذي لم نشبع منه يوما.. كنا ننام على خبر جريمة، ونصحو على فضيحة.. كنا بلا شيء، ومازلنا كذلك فنحن منسيّون وهامشيّون..

في بلدتي الصغيرة، كنّا نبيع السجائر لنعيش، ولنتعلّم، حيث لم يخلّف آباؤنا ثروة ولا حكمة..

كنّا منسيّين وملفوظين على أطراف هذا العالم الكريه.. كنا رغم ذلك، نعيش بؤسنا حالمين بالمجد في الغد.. وكنّا محاصرين في يومنا وفي غدنا. كان الحصار يشتدّ ويدكّ أحلامنا كما يدكّ برد يناير العظام.. وكنا عراة وحفاة، ولم يكن لنا من أمل في الغد لولا إصرارنا.. لولا كفاحنا.. لولا شعلة صادقة زرعها فينا آباؤنا..

أذكر كلمات ألقاها عليّ أبي يوما، وأطلقها كما يطلق الرصاص.. "إذا كتب الله لك النجاة، فلا تعد بعد للبلدة

الحزينة.. لا تعد أبدا إلى الخسران والخيبة، لا تعد إلى البلد. فلا شيء يستحقّ تضحيّتك في البلد. زرعنا، زرعنا، ولم يحصد منّا أحد.."

لقد كان صادقا.. كان عليّ أن أنجو بنفسي من بلدة لا تعرف كيف تحب، وكيف تفرح، وكيف تغني..

لكني ألقيت بنصح أبي عرض الحائط، وعدت إلى البلدة الحزينة.. مدينة الأشباح تلك، مدينة ميّتة يؤثّث ليلها السّكارى المتمايلون المعربدون، وقد خرقوا صمت المدينة وسكونها، ليضجّوا ضجتهم تلك ككلاب الجحيم. وكانفجار أخير للتمرّد المكبوت.. أولئك الذين يُلفظون على هامش الهامش.. أمّا نهارها فيصنعه باعة متجوّلون، يبيعون كلّ ما تحتاجه من خردة، ومن ملابس مستعملة، وخضر وغلال.. لا ثقافة تكتسح شوارع بلدتنا، ولا فضاءات تحويها.. لا قانون يسودها إلا قانون الأسياد، والرأسماليّون الصغار.. بلدة ليلها كنهارها، ظلام في ظلام.. وجيف أحلام، وأعمار مهملة تمضي بلا هدف، وبلا قيمة، وبلا معنى. فكلّ شيء هنا يقودك إلى الضياع..

وفي ظلّ هذا الخراب، فتحت مكتبي كأوّل محام في البلدة.. كان ذلك في خريف سنة تسعين وتسع مائة وألف.

كنت بذلك أتحدّى الخراب، وأقرّب المسافات. أردت أن أكون صوتا لأولئك المنسيّين، البؤساء، المظلومين.. لذلك فقد سلكت الطريق الخاسر. ووجدت نفسي داخل الحرب دون أن أشعر. وكان يمكن أن أجمع مالا كثيرا، ويشار إليّ بالبنان، ويقال هو ذا الأستاذ.. لكن الأوجاع، والنقمة التي ورثتها منذ طفولتي لم تكن لتتركني أنحاز لذلك الطيف القليل من الرأسماليين الصغار، الذين يمتصون دماء البسطاء من الكادحين.. كانوا يتحكّمون بكل شيء. ويقتلون حولنا وداخلنا كلّ جميل..
كلّ فرح.. كلّ أمل..

قال لي أحد الكادحين يوما:" رأس المال يفسد كل شيء، أنا أجير وسأبقى كذلك إلى حين يؤذن لي في الذهاب إلى الربّ.. أبيع جهدي، كل جهدي. وأفني صحتي من أجل ملاليم قليلة.. بينما يجمعون هم الثروات من عرقي، عرقي ذاته. إنّهم لا يصنعون

شيئا، بل نحن الذين نصنع كل شيء. ونعمل من أجل زيادة ثرواتهم. أما هم فلا شيء يقدمونه أو يفعلونه غير ضخّ المال..

هل وُجدت لأخدم هؤلاء الأسياد؟ أهكذا يُختصر وجودي، ووجود الآلاف من أمثالي؟"

وأضاف:" أطفالهم سيرثون الثروة عنهم، أما أطفالي فيرثون شقائي.. حتى المدرسة خربت. فلا وردة تنبت بين طفيليات مزبلة.. هل يمكن أن أحلم بأن يكون ابني طبيبا، داخل هذه البيئة الملعونة؟

ليست هناك عدالة حتى في المدارس، مدارسهم نظيفة وملونة، وتعليمها جيّد. أمّا مدارسنا، فوسخة ومهملة، جدرانها آيلة للسقوط، وشبابيكها مكسورة كانكسار خواطرنا.. مفتوحة كخربة على البرد، والأمطار، والرياح، على الهمّ، والأمراض، واللعنة.. معلّموها يئسوا أكثر منّا، فلا يستشعرون معنى لأفعالهم مطلقا.. كم مرّت على أياديهم من أجيال، لم يكن لهم من نصيب غير الخسران والخيبة. فهم موزّعون بين الشوارع

والمقاهي.. عبد يرث عبوديّة أبيه، وسيّد سيكون حتما سيّدا. هذا هو واقعنا.."

في طريقي الخاسر ذاك، صنعت العداوات، خسرت أناسا كانوا يتزلّفون لي طمعا في خدماتي، من أجل مبادئ الحق، من أجل أن يشبع يتيم، من أجل دفء فقير، ومن أجل نقمة كانت ومازالت تسكنني..

لم أترك واحدا منهم يستشعر راحة أو سكينة. كنت أحاربهم دون هوادة، ولا تراجع.. رفعت قضايا حول كلّ شيء يفسدونه، أو حتى يدخلونه.. كنت حتى أتصيّد أخطاءهم.. كنت ألعنهم داخلي، وأحوّل كل تلك اللعنة نحوهم..

أحد أولئك الجشعين الأغبياء، سطا على أرض على ملك الدولة، ليبني على ترابها محلّا تجاريّا ومستودعا للسلع، ليكدّس المال كأحمق. بينما كان من المقرّر إنشاء حديقة على تلك الأرض التي توسّطت المدينة.. مجرّد حديقة مزهرة ليستنشق البسطاء هواءً نقيّا، ويتبادلون حديثا خفيفا عن الحياة.. لكن ذلك الأبله

الجاهل أبى إلّا أن يفكّر في زيادة ثروته بكلّ جشع، حتى إن كان ذلك على حساب حقنا الطبيعي في الهواء والنقاء والخضرة والجمال. كان جهله وجشعه قد صورا له أنّه ليس من المهمّ أبدا أن تنعم أعيننا ببعض الخضرة، وأنوفنا ببعض الهواء النقي..

لم يتكلّم أحد، ولم يناقشه أحد. فمن ذا الذي يستطيع الوقوف في وجه رأس المال الجشع؟

ربّما في الزوايا، وفي المقاهي، كانوا يوشوشون ويهمسون بخوف.. وحدي أنا الذي وقفت وقلت لا.. لا لقتلنا، لا لخرابنا، لا لموتنا، لا لمصّ دمائنا، لا لخنقنا..

تزلّف إليّ ذلك الجشع البغيض، ثم حاول إقناعي بصواب فعله. ولمّا لم يجد إصغاءً مني، ورأى تزمّتي وإصراري، انقلب يحاول إغرائي بالمال والرشوة.. ثم لم يجد أمامه غير محاربتي بشتى الوسائل، حتى القدح في عرضي وشرفي، لمّا لم يجد فيَّ قلبا جائعا للمال الذي عبدوه واستعبدوا به الناس.. وكان ممّا قاله

وفعله أن حدّث الناس بأني أفعل ما أفعل طمعا في رشوة منه. وصوّرني في أعين البسطاء كمبتزّ محتال. فصدقه أولئك البسطاء السذج.. أولئك الذين طالما مصّ دماءهم كخفّاش. وأصبحت منبوذا من أولئك الذين كنت أدافع عنهم.. فيما كان هو يرشي غيري من المسؤولين الكبار.. يا للسخرية، إذ أذكر قول ذلك الشرطي:" أنت مختصّ في القانون الجنائيّ، فما دخلك بمسألة تهمّ القانون التجاريّ؟"

قلت:" وهل هناك جناية أكبر من قتل الناس جميعا؟ هل هناك ما هو أكبر من خنقنا، وحرماننا من الهواء، من حقّنا الطبيعي في التنفّس؟"

سخر الشرطيّ قائلا:" أنت تظلم نفسك، فلا أحد يموت من رائحة الزبالة، وانعدام المساحات الخضراء من أمام عينيه."

بلى يموت الإنسان من العفن، إذا عاش عمرا كاملا في المدينة المزبلة.. في المدينة المبولة.. إذا غابت الحدائق، لا يتنزّه الإنسان، لا يتنفّس، لا يحبّ،

لا يغني، لا يحلم، لا يتخيّل، لا يشعر، لا يفكّر.. إذا غابت الحدائق غابت أحلامنا، مات غدنا، فالغد للأطفال. وأطفالنا إن لم يجدوا الحدائق فلن يكونوا بشرا، بل كتلا من الغباء والعفن تتحرّك.. قنابل موقوتة ونائمة للتفجير والخراب.. سنجد بشرا كالبغال، بلا إحساس وبلا حكمة، وبلا جمال.. فمن يتعوّد المزابل والعفن، لا تنتظروا منه أن يورق كزهرة بل سيكون كومة عفن، كومة عفن بلا إحساس..

يا للسخرية، فقد استرجعت الدولة أرضها. ولم نر إلى الآن محلّا تجاريّا ولا حديقة..

كان ذلك في أوائل سنة ثلاث وتسعين وتسع مائة بعد الألف، كم من حرب خاسرة خضتها دفاعا عن أولئك العبيد الذين ناصبوني العداء، من أجل لقيمات بائسة، وملاليم قليلة ساقطة من عند أسيادهم..

كان يوما من أيام يناير البارد، وكان الغيم ينشر رماديّة لونه على بلدتنا الصغيرة.. كان يوما من أيام يناير لسنة تسع وتسعين وتسع مائة وألف، في ذلك اليوم حضرت

إلى مكتبي متأخّرا إلى حدود الساعة العاشرة تقريبا. فقد كان البرد يدكّ العظام، ويجبرك على ملازمة البيت حيث الدفء والفراش والاسترخاء.

رغم ذلك الجو البارد، فإني خيّرت أن أقصد المكتب مشيا على الأقدام، وأطالع وجه المدينة البائس في البرد.. لا أعرف لماذا تغريني مدينتي في البرد، فأتمشّى في شوارعها بحثا عن ملامحها الحقيقيّة.. المدن البائسة تكون صادقة في الشتاء، إنها لا تكذب ولا توارب. المدن البائسة تكون جميلة في الشتاء.. كانت الأزقة ساكنة، فلا أحد يعبرها في هذا البرد الذي يحاكي صمتها.. فقد كان صامتا يدكّ العظام في هدوء، دون استعانة بالريح أو حتى بعض الهواء الشّتائي الغاضب. كان بردا يخترقني في صمت، وكان الناس يلازمون البيوت أو المقاهي، يلازمون الأفرشة الدافئة ويوقدون جمر الدفّايات، أو يختبئون بين ملابسهم الشتويّة ومعاطفهم، كالسلاحف أو كقنافذ تُصَرّ على أنفسها، لتنام في خيبة.. كنت رغم إنسانيّتي التي تميل إلى الدفء والاختباء، أحب وجه الطبيعة الغاضب،

وأحب الحضور، كما أحب محاورة الشتاء.. يتملّكني ذلك الشعور بالحكمة الرومانسية وأنا أَهِبُ كياني إلى الطبيعة الغاضبة لتحضنه أو تعصره..

عبرت الشارع المؤدي إلى مكتبي الذي ينتصب على حافّته اليمنى أخيرا، ولاح شبحي من بعيد وأنا أرتدي معطفي الطويل، وألفّ على رقبتي وشاحا يحضنني ويطوّقني كذراعي امرأة عاشقة.

أمام مكتبي شجرة صنوبر، زرعتها بنفسي كحركة مقاومة أخيرة وهزيلة، في ظل غياب الحدائق، كغياب الحقائق في مدينتي الصغيرة.. وكحركة احتجاج تريحني بقدر معقول، من عقدة الشعور بالذنب. نمت تلك الشجرة إلى حد مقبول، فاستطالت قليلا، قليلا، وانتصبت كشاهد أخير ونبيل على رفضي للبؤس الذي يلفّ مدينتي..

في الأسفل، أسفل الشجرة، جلست عجوز القرفصاء على التراب، تنتظرني بصبر ولهفة.. وما إن لمحت شخصي من بعيد حتى هرعت إليّ تركض بكل ما

كانت تسمح به طاقة مسلوبة من ساقيها اللتين نفخهما البرد، وعشّش فيهما لينقلب شبابها وجمالها إلى أطلال تختفي كمسحة أمل وراء عذاب لياليها، التي بدا لي أنها كانت تمضيها في المسح بالمراهم، والصبر على الأوجاع..

كانت امرأة تقليدية إلى أبعد الحدود، تضع على رأسها شالا أخضر، يُسدل ستره على كتفيها وصدرها. وعلى جبينها عصابة غليظة، فيما كان "الحرام" ينسدل على كتفيها كبُرد.. كانت ترتدي أيضا لحافا أمازيغيّا أزرق ومزركشا.. أمازيغيا كان ذلك اللحاف، لكنّه صار يصنع في الصين الآن!!

وجهها لم يخن هويتها الأمازيغية، ولم يشذّ عن التناسق، فقد كان وجهها المستدير موشّحا بطبوع وشم عايش معها العمر كجزء منها، من ذاتها، من حضورها، من ثقافتها التي تطلّ كخيوط الشمس من الماضي مشرقة، ورافضة للذوبان والانصهار في ثقافة الاستهلاك، ثقافة العالم الواحد والفكر الواحد والمسار

الواحد، حيث نحن مجرّد مستهلكين سذّج للسلع كمواشي..

هل يمكن أن نعتبر الوشم الأمازيغي حركة مقاومة أخيرة للعولمة؟

أذكر أن أمي- التي لم تنج من طقس الوشم الذي كان لازما في قريتنا المنسية، حيث تجتمع الصبايا عند "الواشمة" لتحفر في وجوههن صورا وخطوطا تشبه الحرف الأمازيغي.. كان ذلك علامة على دخول الفتاة مرحلة الشباب، وتوديعها لطفولتها اللّاهية. كان علامة على صلاحيّتها كامرأة للخطبة وللزواج وللأمومة أيضا.. إنه طقس يرتقي لمرتبة المقدس الشعبي، يفصل عبره أجدادنا بين الطفولة والنضج.. كان كشهادة تسلّم للفتاة، يُعترف من خلالها لها بأنوثتها المكبوتة. فهو طقس وجزء عظيم من الهوية والحضور..-

أذكر أن أمي حدثتني أنها علمت أخيرا من أبي المؤدّب أن الوشم حرام شرعا، فطفقت وهي مذعورة تحاول إزالة الوشم بشتى الوسائل دون جدوى..

كان الوشم محفورا، وثابتا في تفاصيل وجهها، يرفض أن يُزال، وكأنه يحدّث بصموده عن بعض ملامح هوية تأبى أن تذبل ويأتي عليها خريف الثقافات ليصهرها..

يئست أمي أخيرا، فاستغفرت ربها ورضت.. كانت أمي تحبّ الله وتصلي بشوق، وكان أبي يزيد شوقها وخوفها أحيانا بحديثه عن جمال الله وعظمته، تلك التي تراها أمي في تفاصيل موجوداته..

وصلت العجوز المسكينة إليّ أخيرا، وألقت بوجهها وكلتا يديها على ذراعي متوسّلة وباكية..

قبلتني كثيرا بحرقة ولوعة، وغمغمت بكلام غير مفهوم كالهذيان.. كانت تقول والدموع تخنقها:" جازاك الله.. فتح عليك الله.. باركك الله.." كلام من هذا القبيل كثير، لم أتبين أغلبه. كان ينساب من شفتيها، كهذيان مجنون..

هدّأت من روعها، وقدتها إلى المكتب مسايرا مشيتها البطيئة المنهكة..

عند دخولي إلى المكتب، عاتبت سكرتيرتي الشابة، لأنها تركت هذه العجوز المسكينة تنتظر مجيئي خارجا، ولأنها لم تهاتفني بشأنها حتى. فردّت تدافع عن نفسها:" العفو سيدي، لقد أنهكت وأنا أتحايل بشتى الوسائل لتنتظرك بالداخل دون جدوى، أما عن مهاتفتك، فإنّي لم أشأ إزعاجك في هذا اليوم الشّتائي البارد، سيما وأنّه ليس لك فيه أيّة مواعيد، ولم يزرنا أحد غير هذه المرأة."

قلت مازحا:" إذن، فهي عجوز محظوظة." ثم ابتسمتُ، وأذنت للمرأة المسكينة في الدخول إلى غرفة مكتبي، فدخلنا وأغلقت الباب ورائي.

أذنت لها بالجلوس، فجلست. ثم قلت:" لتتفضلي، ما هي مشكلتك؟"

عادت المسكينة إلى البكاء، منخرطة في جو يلازمها من الحزن والذعر. وقالت بلهجة مهمومة:" ابني.. ولدي محمود، ليس لي في الدنيا غيره.."

- ماذا جرى لمحمود؟

- محمود، سيعدمونه.. محمود محكوم عليه بالإعدام..
- أوه.. ذلك مؤسف ومؤلم، لكن لماذا حكم عليه بهذا الحكم القاسي؟
- إنّه متّهم بالقتل، لذلك سيعدمونه..

قالت ذلك، وعادت إلى البكاء. فقلت مهدّئا، ومستفسرا:" هدّئي من روعك يا أمّاه، حدثيني فقط بهدوء، تمالكي نفسك حتى أفهمك."

ثم أضفت أمام صمتها المفاجئ:" من قتل ابنك؟"

ردّت بغضب:" لم يقتل أحدا.. ابني بريء.. ابني بريء.."

- "حسنا،" قلت.
- "لنغيّر السؤال، بماذا يتهمون ابنك." أضفت.
- "ابني متّهم بقتل زوجته، سيعدمونه." قالت بحرقة.
- "هل اعترف؟" قلتُ كمن ألهم السؤال.

- "وهل ضرّه شيء غير اعترافه.." قالت ذلك، ثم سمحت لتلك الدموع المحبوسة بأن تترقرق حارقة خديّها، لعلّها تطفئ حرقة مشتعلة بقلب أم.

أمهلتها بعض الوقت لترتاح، ثم قلت:" هل من الممكن أن تسردي على مسامعي الحكاية بشكل واضح وبسيط؟"

قالت بصبر:" ماتت كنّتي في ربيع سنة ست وتسعين وتسع مائة وألف، انتحرت يا سيدي، عنّ لها قتل نفسها ففعلت.. شقت أحشاءها بسكين.. لا أدري كيف أقدمت عزيزتي مريم على ذلك، ولكنّها فعلت، وهذا ما حصل.. جاءت الشرطة وحققت، وخلصت إلى أنّ كنّتي مريم انتحرت."

قلت:" مؤسف، وبعد؟"

أضافت العجوز:" في شتاء السنة الفارطة، قدّم ابني محمود نفسه إلى العدالة واعترف.. اعترف بقتله لمريم."

قلت متفاجئا:" وما الداعي لذلك؟ لماذا يورّط نفسه في قضية حفظت وانتهى أمرها!!"

قالت بغبن:" الشرطة نفسها قالت له ذلك، لكنّه أصرّ، وقال بجنون، على العدالة أن تتحقق.."

ثم أضافت:" ولدي مجنون يا سيدي، مجنون.."

قلت بشوق لتفاصيل هذه القصة العجيبة:" وماذا وقع بعد ذلك؟"

- حوّلوه إلى التحقيق من جديد، ومن التحقيق إلى المحكمة. وفي المحكمة، حكموا سريعا بإعدامه..
- ألم تعيّنوا له محامي؟
- ليس له أحد غيري.. لم أتوقّع أن تتّخذ القضية مسارا سريعا ومخيفا هكذا، عيّنت له السلطات محاميا، فلم يكن إلّا متخاذلا.. طالب بالتخفيف مستندا إلى أنّ ابني اعترف بجريمته، وأنه نادم لأجل فعلته.. غير أنّ ابني صاح من خلف

القضبان، لست نادما، لست نادما.. فعاقبوه بأقصى عقوبة.

- حسنا، ربما قتلها فعلا لسبب خفيّ عنك، ماذا قال الشهود؟
- ليست هناك شهود.. الواقعة حصلت بين اثنين فقط، هما محمود ومريم، وسواهما لن يفتيك أحد..

بعد سماعها بكل تعجّب، طلبت مني تلك المرأة أن أكون محامي ابنها، وأن أرفع قضية لدى محكمة الاستئناف لإعادة المحاكمة من جديد.. طلبت مني ذلك بتوسلٍ وبكاءٍ فقبلت.. قبلت دون شروط، ودون أتعاب..

لا أدري كيف قبلت، ولا الذي حرّكني لقبول قضية غريبة وشائكة، ودون أتعاب أيضا.. كما لم تكن برأسي أيّة خطّة لاقتحامها، كنت فقط منشدّا لمساعدة امرأة هامشيّة معدمة، تشبثت بي كما يتشبّث الغريق بقشة، ومنشدّا أيضا لاستقراء مجريات حادثة، والنبش في حياة هامشيٍّ غامض، كفضوليّ أبله..

3

*****

في يوم العاشر من فبراير لسنة تسع وتسعين وتسع مائة وألف، كان عليّ أن ألتقي السيد محمود عوينات في سجنه، بصفتي محامي الدفاع الجديد. كنت قبل ذلك، قد أنهيت جميع الإجراءات القانونية اللازمة كي أصبح محاميا له.. وكان على أمّ محمود العجوز، أن تبصم لي في كثير من الأوراق التي تخوّل لي مباشرة عملي. وكما أخبرتكم، فإني قد باشرت هذه القضية دون أجر. ودون خطة مبدئيّة كذلك.. شيء ما جعلني أتحمّس لها، رغم أنّها قضية شائكة ومقفلة، فلا مناص مبدئيا للسيد محمود من قضاء العقوبة المقررة. وكأنّ إعدامه، مسألة وقت ليس إلّا.

ليس بهذه القضية ما يغري، فهي على غرابتها، لم تشغل الرأي العام، ولم تفح منها رائحة انفجار إعلامي أو صحفيّ معيّنٍ.. حتى في بلدتنا الصغيرة، فإنّ هذه القضية لم يُجاوز ذكرها بعض أفواه من الناس

والأهالي، الذين كانوا مقربين جدا من عائلتيْ المتّهم والضحية مريم..

الناس لم تعد تهتم للأخبار الشيّقة في مدينتي. فهي كما قلنا تنام على جريمة، وتصحو على فضيحة..

ربّما مرّت قضيّتنا، كخبر عابر في صحيفة أو صحيفتين ضمن صفحة الحوادث، وربّما انشغل قارئو الخبر به ساعة أو بعض ساعة، ثم غزا ذاكراتهم النسيان والانشغال.. فالناس تنسى، تنسى الجيّد والسيّئ لانشغالها الدائم بما يأتي.

كنت في تلك الأيّام الأولى من شهر فبراير قد تحصّلت على ملفّ القضية كاملا، فعكفت على دراسته أسبوعا ونيف.. كنت أبحث عن الثغرات كخيّاط، وعن منفذ كفأر دون جدوى..

كان السيد "محمود عوينات"، قد ورّط نفسه بالفعل. وكان كمن يلقي بنفسه في بئر، أو كمن يلفّ الحبال حول جسده مقيّدا نفسه..

هل تعرفون مثلا، ماذا قال في التحقيقات؟

فلتسمعوا إذن لتماسك أقواله..

"تعرفت إلى مريم صدفة، وتزوجتها صدفة أيضا، قدّمتها أمي لي ثم خطبتها وزوجتني إياها.. لم أكن أحبّ مريم، لثماني سنوات معها كنت جسدا بلا روح، كنت أكرهها يوما بعد يوم.. ولحسن الحظ لم ننجب أنا وهي أبناءً.. كنّا على تنافر دائم، وكنّا في خصام مستمرّ.. وكنت أفكّر دائما في الخلاص منها بلا جدوى.. فكرة قتلها كانت تعيش معي، وكنت أتحيّن فرصة لتطبيقها يوما. وفي يوم الواقعة حيث لم يكن غيرنا في ذلك الجحيم، وحيث كانت مريم تولول وتصيح.. تجادل وتخاصم، وحيث كانت أصواتنا عالية.. وحيث كان الغضب يتملّك كلينا، واللعنة تحمحم كشيطان فوق رؤوسنا، تناولت السكين من أمامي في غضب، وغرسته في بطنها بقوة ووحشيّة.. صاحت صيحتها المفزعة، وهي تمسك السكين المغروس في أحشائها، وسقطت.. سقطت سابحة في دمائها.. أشعلت سيجارة في هدوء، وبصقت في وجهها. ثم راق بالي،

شاعرا براحة وسكينة.. وبحرفيّة ممثل، هرعت سريعا إلى الباب الخارجيّ، ففتحته مناديا في الناس والجيران، متصنّعا الفزع والحزن.. جاءت الشرطة، فزعمت أنّ مريم انتحرت في المطبخ، بينما كنت أنا أتابع التلفاز في غرفة الضيوف.. كنت هادئا ومتمكّنا فخدعتهم، وكانت شهادة الناس حولي لصالحي، إذ لم يكن لي جيران قريبين، كنا نعيش بعيدين ومنعزلين، فلم يسمع أحد من خصامنا شيء.. وحدي أنا كان بإمكاني حلّ اللغز، وها قد حللته بعد ما يزيد عن سنة ونصف من العذاب.."

وأضاف في موضع آخر:" روح مريم الهائمة، لا تترك لي مجالا لأرتاح.. تعذّبني عند الصباحات والمساءات.. وحيدا أو بين الناس، وحين أخلد إلى فراشي، تزورني مريم لتخنقني.. يا قاتل الروح أين تروح؟ أرجوكم أعدموني، سلّطوا عليّ أقسى عقوباتكم لأرتاح.. أطلقوا عليّ رصاصة الرحمة لأنتهي من هذا العذاب.."

والآن ما رأيكم في هذا الذي سمعتموه؟ هل للسيّد محمود من منفذ أو حتى بصيص أمل ضيّق!!

لقد قدّم اعترافا كاملا ومثيرا، ومريحا أيضا للقضاة بالقتل العمد مع سبق الإصرار والترصّد.. وها أنا ذا ألتقيه في هذا اليوم الشتائيّ بشوق ويأس أيضا..

كان رجلا نحيلا ودقيقا كعمود، تبتلع بدلة السجن جسده النحيل أما تفاصيله فلا تظهر. عيناه ضيّقتان غائرتان، أمّا نظراته فحادّة مخيفة.. صافحته متصنّعا الابتسام، وقلت مقدّما نفسي:" شكري سلمان، محاميك."

ردّ ساخرا بمرارة:" كنت أعتقد وهم يقودونني من زنزانتي، أنّهم يأخذونني لملاقاة شيخ يتلو عليّ آيات الرحمة، قبل أن يُؤذن لي في مفارقة العذاب، فأعدم وأرتاح.. أسكن إلى الأبد كما يقال، لكن يبدو أنّ سيمفونيّة العذاب مستمرّة في إصدار النغمات الحزينة، والعزف على أوتار جراحي إلى ما لا نهاية."

لم أجد ما أقوله تجاه يئسه، فقد كنت يائسا أكثر منه. لكني تمالكت نفسي واستجمعت قواي وقلت بحزم متصنّع:" سيّد محمود، لا يجب أن تفقد الأمل.."

قاطعني قائلا:" الأمل في ماذا؟ لم يعد لي أمل كذلك الذي يصاحب الأحياء.. أملي هو أن أموت، أو أشنق. ذلك هو أملي يا سيّدي!!"

قلت بحزم أكبر:" سيّد محمود، لماذا لا تساعدني في إنقاذ نفسك؟ يجب أن تصارحني أوّلا، هل قتلت زوجتك فعلا؟"

كان يستمع إليّ ويبتسم بسخرية وحزن، ثم قال ببرود:" نعم قتلتها.. قتلتها كما تغتال حمامة، وكما تسلب الحياة من بائس شقيّ، سلبتها حياتها."

أضفت:" حسنا، ما الأسباب الحقيقيّة التي دعتك لقتلها؟"

ردّ ببرود ولامبالاة:" شرحت كلّ شيء في التحقيقات، ولا بأس أن أعيد.. قتلتها لأرتاح، ليس هناك شيء أكثر جحيميّة من العيش مع إنسان لا تريده."

قلت:" يبدو ما تقوله غير مقنع، لكن يجب أن ننسى كلّ ذلك، عليك أن تغيّر أقوالك.. بإمكاني تلفيق شيء ما.. لنقل مثلا أنّك قتلتها على وجه الخطأ.."

ردّ بإصرار وبرود:" بل قتلتها على وجه الحقيقة."

أضفت متجاهلا مقاطعته لي:" أو لنقل إنّك اكتشفت خيانتها.. إنّه سيناريو جيّد لنجاتك. فالقتل من أجل الشرف يراعى فيه التخفيف و.."

لم يسمح لي محمود بالمواصلة، فقاطعني وقد استشاط غضبا، واحمرّت عيناه، وقام فزعا، وما لبث أن أمسك بتلابيب معطفي قائلا:" تريدني أن أدّعي الشرف؟ أقتل مريم مرّتين؟! هكذا أنتم أيّها المحامون، مزيّنون ومخادعون.. كأنّ وجودكم معقود بخلاص ذمم المجرمين.. ما حاجة البريء إليكم؟ وماذا ينفع الشريف دفاعكم وهو النقيّ؟"

أمام دهشتي وتيهي جرّاء هذا الموقف الذي لم أكن أتوقّعه، كان الحارس يفتح الباب ويدخل، ليجذب محمود، ويقوده إلى الزنزانة معتذرا، قائلا في وضوح:" إنّه مجنون، مجنون.."

فيما كنت أغادر السجن، أغادره وقد امتلأت يأسا وخجلا وإحباطا وغضبا. إلى درجة التفكير في ترك

القضيّة الملعونة التي لا أدري لماذا كنت أتورّط فيها ساعيا إلى إنقاذ محمود بكلّ الوسائل.. شيء ما كان يحرّكني تجاهها، كأمل، كمعنى، كشفقة..

كنت أحسّ بغموض يلفّ القضية.. حلقة مفقودة أشعرتني ببراءة محمود، رغم أنّ المجريات والأدلّة كانت تدينه، وليس أصدق من اعتراف نادم معذّب.. أحقّا لا حاجة لبريء بمحامي؟ أحقا تبدو المحاماة مهنة التزييف والاحتيال؟

بالطبع لا، فكم من بريء لم يحسن إنقاذ نفسه، ولم يدر كيف يفكّ خيوط مؤامرة إلا بمساعدة محام نبيل. وكم من صالح مغفّل كاد يذهب حقّه هباء منثورا نتيجة لعبة احتيال محبوكة، ولم يسترجع حقّه إلا بسحر محامٍ يعرف كيف يفكّ أحبولة الشياطين.. فالمحاماة مهنة نبيلة ولا شك، ولكنّه إصراري على نجاة إنسان، هي التي جعلتني أختلق تلك الترّهات في حضرة مجنون نفكّ من لسانه الكلمات بصعوبة كما يُفكّ الحرير من السدر.. وعلى كلّ، فليس عليّ أن أصغي لمجنون..

مجنون؟ كيف فاتني ذلك؟

أمّه أيضا كانت تقول إنّه مجنون، ولم أنتبه.. يا للبلاهة، هذا هو المنفذ.. هذا هو المخرج من الأحبولة..

كان عليّ في الثاني عشر من نفس الشهر، أن أزور تلك العجوز الأمازيغيّة لجمع بعض المعلومات، وللتحدّث أيضا بشأن محمود.. عندما ألتقيها، سأتحدّث رأسا عن جنون محمود. إنّها فرصة لإطفاء نار قلبها، فلا شيء أغلى من فلذات الأكباد، وإذا ثبت أنّ محمودا ليس إلا مريضا نفسيّا، أو عصبيا، فإنّ ذلك من شأنه أن يريح تلك العجوز، ويعيد إليها ابنها.. ابنها الوحيد..

كان محمود مجنونا فعلا، فلا أحد يقدّم نفسه للمشنقة جزافا، إلّا إذا كان مجنونا.. كما يبدو من أقواله أنّه مجنون فعلا، فكيف لرجل عاقل أن يقتل لأجل عدم احتمال حضور شخص إلى جانبه؟ وكيف لرجل عاقل أن يثور في وجه محام يريد مساعدته وإنقاذه؟ وكيف لرجل عاقل أن يسأم الحياة ويضيق ذرعا بها ليلقي بنفسه في بئر، ويطالب بإعدامه!!

صحيح أنّ عذابات الإنسان، إذا ما تورّط في جريمة قذرة، تحيله إلى الخسران والخيبة. وتصنع من حياته جحيما لا يطاق، لكن ليس إلى الدرجة التي يلقى فيها المرء السلام والسكينة بصحبة الموت.. ثمة ولا شكّ أمور خفيّة تتوراى بالحجاب وراء مسرح هذه القضيّة، كما تخفي الكواليس أسرار الممثلين، وعدّة سحرهم..

الكواليس.. نعم الكواليس هي التي عليّ البحث فيها، إذ لا بدّ لكل قضيّة من كواليس، وهي المفتاح الحقيقيّ لأيّة قضيّة.. وها أنا ألتقي تلك العجوز البائسة في بيتها المتواضع، بيت محمود، بيت الجريمة المحيّرة..

كان بيتا متواضعا كبيوت الهامشيين في بلدتي، يتألّف من غرفتين ومطبخ، ومرحاض في الخارج هامشيّ ومهمل، إضافة إلى فناء واسع في الوسط.

جلست فيه تلك العجوز الأمازيغيّة على جلد خروف مدبّغ، وهي تتلهى بالتسبيح، بينما انتصب أمامها موقد بدائيّ من الطين للتدفئة..

كان البيت موحشا ومخيفا.. أذكر كيف سرت قشعريرة في كامل جسدي حينما دخلته، مخلّفة في جسدي وعقلي رهبة ظللت أجد سلطانها فيّ طيلة مكوثي بجانب العجوز، الذي لم يتجاوز ساعة.

تناولت كرسيّا خشبيّا متآكلا، وجلست قبالة العجوز المسكينة، وقلت:" حدّثيني يا خالة، كيف كانت علاقة محمود بمريم؟"

ردّت بهدوء وحكمة ممزوجة بحسرة وحزن خفيّ:" كانا كأيّ زوجين في هذه الدنيا، متحابّين أحيانا، متخاصمين أحيانا أخرى.. غير أنّ عشّهما كان يظلّل عليه الدفء والرحمة، وكان محمود يقول؛ كلّ شيء إلا مريم."

سألتها باستغراب:" لكنّ محمود يزعم أنّه لم يكن يطيق مريم!"

ردّت مستنفرة كمن يجلّي الحق عن افتراء:" إنّه مجنون، محمود مجنون.. يقول ذلك ليورّط نفسه، عاش حياته كلّها مجنونا، وها هو يلقي بنفسه إلى الهاوية."

قلت:" أكان يحبّها؟"

قالت:" نعم، مثل أيّ زوجين."

سألت سؤالا أكثر جرأة، قلت:" لماذا لم ينجبا أبناءً؟ وكيف احتمل محمود العيش بلا أبناء، طيلة هذه المدة؟"

ردّت بإجابة تزيل سمّ السؤالين معا:" زارا كثيرا الطبيب، كان محمود عقيما، لذلك زار منفردا الطبيب كثيرا.."

قلت:" حسنا، كيف كانت مريم؟ ألم تضجر طيلة هذه المدة؟ ألم يخلق ذلك بعض المشاكل؟ ألم تطلب الطلاق؟"

كنت أدرى الناس بخبايا بلدتي، لذلك عرفت أني أسأل سؤالا بلا محلّ لطرحه.. كانت الخالة العجوز تسمع لكلامي بدهشة، وحينما تناهت إلى مسامعها كلمة الطلاق، هتفت متفاجئة:" الطلاق!!" ثم أضافت بتحسّر:" مريم.. يا لابنتي المسكينة، لقد كانت ملاكا

طيّبا، مريم لا تضجر ولا تغضب، مريم دائمة الضحك في وجوهنا.. مريم تحبّنا كلانا، أنا ومحمود."

صمتت لحظة شاردة العقل، كأنّما تمرّ بعقلها بعض الذكريات المفاجئة ثم قالت:" ربّما يا ولدي انتابها بعض الإحساس بالغبن، فليس في الدنيا امرأة لا تحلم بالأمومة." ثم أضافت، كأنها تصغي لتساؤلات تدغدغ عقلي وتغازله على استحياء:" كنت أراها حزينة في بعض الأوقات.. تفكّر وقد غلب عليها الشرود.. مريم كثيرة الشرود بطبعها."

قلت وقد غلبني حدسي:" هل معك بطاقة مواعيد الطبيب يا خالة؟" وأضفت أمام دهشة العجوز:" الطبيب الذي كان يعالج محمود، هل معك عنوانه مثلا؟ أو تحفظين اسمه؟"

قالت وهي تولج يدها ببطء بين ثنايا لحافها باحثة، لتخرج منديلا ملفوفا ناولتني إياه:" أي بنيّ، دماغي مثقوبة من الجهل والهرم، فلا أحفظ أسماء ولا أماكن، لكني أحتفظ هنا ببعض الأوراق الهامّة، كذكرى من

محمود أشتمّ فيها رائحته، وتحسّبا أيضا لطلبٍ من رجل مثلك.."

تناولت المنديل منها، ثم فككت لفّته..

وجدت بعض الصور المختلفة لمحمود، ومضمون ولادته، ووصفات دواء، وبعض البطاقات، ثم أوراق أخرى بلا معنى.. تفحّصت البطاقات واحدة، واحدة، حتى وجدت أخيرا بطاقة مكتوب عليها؛ الدكتور "عامر صحبي"، أخصائي في أمراض العقم والجهاز التناسلي..

وضعت البطاقة ووصفات الدواء في جيبي، بينما كانت تلك العجوز تنظر إليّ بدهشة، ممزوجة بأمل خفيف. فقلت وأنا أرجع إليها المنديل:" حدثيني عن حياته يا خالة، حدثيني عن محمود.."

قالت والدموع تنهمر من عينيها، تحبسها تارة وتطلق لها العنان تارة، وبيدها منديل تمرّره مسحا على خدّين تحرقهما الدموع واللوعة:" ولدي محمود شهم وطيّب، لم تعطه الحياة فرصة ليكون ما يريد.. كان يحلم

ويحاول، لكن ما حيلة الوردة التي تنبت بين طفيليات الزبالة، وما حيلة المسافر بلا رفيق.. أبوه كان قاسيا، لم يفهمه يوما. عامله كما يعامل البغل، وحين كان يتحدّث محمود عن أحلامه، كان والده يسخر ويقول؛ أتنبت وردة وسط الزبالة؟!!"

قلت مستفسرا:" بماذا كان يحلم محمود؟"

ردّت بسذاجة قرويّ:" محمود كان يحبّ العلم، كان يدرس بجديّة، وكان يكتب من حين لآخر ويطالع.."

سألت بلهفة:" ما كان يكتب؟"

ردّت بعفويّة، وهي تحاول شرح أمر صعب لا يستوعبه عقلها الأميّ:" كان يكتب أشياءً لا أفهمها، ربّما شعراً أو قصصاً.. كان يقرأ عليّ أحيانا كلامه الجميل الذي لم أكن أفهمه كثيرا، ويقول؛ يوما ما، سيعرف أبي قيمتي ويقدّرني.."

قلت كمن يمسك برأس فتيل أحبولة:" وهل جاء اليوم الذي قدّره فيه أبوه؟"

قالت بحزنِ الذي تُستثارُ ذاكرته، وتَنفتحُ على همّ قديم لا يريد تَذكّرهُ:" لم تعطه الحياة فرصة.. محمود لم ينل شهادة الباكالوريا، ومات أبوه في نفس ذاك الصيف، فترك محمود الشعر والمدرسة معا، وراحت تتلقّفه الأيّام بحثا عن عمل.."

قلت بحسرة ممزوجة بأمل خفيف:" هل تحتفظين بشيء من كتاباته؟"

قالت وهي تنهض من مجلسها بتثاقل، وقد مدّت يدها إلى عكّازها فجذبته تتوكّأ عليه في بؤس:" أي بنيّ، ضاع منها الكثير بين ثنايا الزمن الغادر." ثم ولجت تلك الغرفة المهملة التي واجه بابها فناء المنزل وانفتح عليه.. كانت غرفة أكثر وحشة من البيت كلّه، وقد بدا لي ذلك حينما ألقيت ببصري تجاه العجوز المسكينة، وهي تدلف إليها بسكينة ووقار كمن يدخل مسجدًا. ثم عادت إليّ ببطء وتثاقل، كراهبٍ عجوز يتقدّم ليبارك مريديه..

ناولتني كرّاسا قديما، يغلب عليه الإهتراء والغبار والإهمال.. ثم قالت:" لم تبق إلا هذه، وحيدة ويتيمة مثله.. خذها لعلّها تفيدك وتفيده في شيء.."

فتحت الكرّاس، فإذا هي نوع من الخواطر، كُتبت بخطّ اليد.. لا يكاد حبرها يظهر، فقد كانت عتيقة كتلك الكراسات التي يكتبها مؤدّبو بلدتنا، وهم يتوارثونها جيلا بعد جيل كمخطوطات نفيسة، تطرح بين ثناياها الهامشيّ من أمور الدين..

طويت الكرّاس العتيق، وأخفيته بين ثنايا معطفي ككنز فريد، قائما من مجلسي ومودّعا عجوزي الطيّبة "أم محمود" قائلا:" لتطمئنّي يا خالة، عساه يكون خيرا.."

ردّت باستسلام:" أي بنيّ، رأسي شاب من الأحزان، فليكن ما كتبه الله، فلن أكون إلّا راضية.."

كنت أغادر تلك الأحياء الهامشيّة، وبقلبي شوق للكرّاس والخواطر.. سحر ما شدّني بقوة إليها، كالإيمان، كرهبتنا من الغيب، كانفتاحنا على الأسرار المقدّسة..

كنت أغادر، ونفسي تحدّثني بساعة من رهبة التّجلي صحبة تلك الخواطر التي لم يكن يدر حقيقتها أحد..

4

*****

بعض الأشهر هكذا، حزينة ومفجعة. بعض الأيام هكذا، مخيفة ومزلزلة. كذلك كانت أيّام النصف الثاني من شهر فبراير لسنة تسع وتسعين وتسع مائة وألف..

كان عليّ أن أحيا في تلك الأيّام، أقسى المشاعر وقعا، وأرقب بعينيّ ومشاعري أكثر الأحداث صدمة.. ليس بصفتي كمحام بل كإنسان.

في الفترة الممتدّة من الثالث عشر إلى الرابع والعشرين من فبراير الحزين، كان عليّ أن أنهي الإجراءات المتعلّقة بنقل محمود إلى المستشفى لعرضه على الفحص الطبي النفسي، للتأكد من سلامة مداركه العقلية، ساعة وقوع الجريمة وقبلها وبعدها.. كنت قد طلبت كشفا كاملا لحالته النفسية والعصبية.. كانت تلك مجرّد حيلة مني لإنقاذه. كنت أفكّر بتردّد في تعاطف ما من الأطبّاء تجاه محمود، وقلت في نفسي:" ربّما

استطعت أن أميل قلوبهم تجاه هذا البائس، عساهم يرحمونه."

ما تزال صورة محمود تمثل أمامي بكثير من الرهبة والدهشة تجاهها.. عيناه ونظراته، وجهه وحركاته، عنفه المفاجئ، استسلامه ويأسه، السلام الذي يجده مع الموت.. كلّ ذلك جعلني أنظر إلى حاله بكثير من الإشفاق والأمل أيضا..

يا للخيبة! إذ لم يكن الأمل في حياة أو عبقريّة، بل كان أملا في الجنون..

أليس من السخرية أن يغدو الجنون أملا في النجاة؟

هكذا تنفتح المآسي الإنسانية العظيمة، على السخرية والهموم، فتستحيل مساخر فضّة بشكل مقرف..

في الرابع والعشرين من ذلك الشهر، شهر فبراير، كنت قد أنهكت تماما، من الركض وراء إجراءات قضية صارت تعنيني بشدّة. وتحوّلت من محام يختزل

معنى وجوده في نصرة موكّليه، ومطاردة رزقه كعامة الناس، إلى باحث عن الحقّ يطلبه فلا يجده..

كان لخواطر محمود، تلك التي لهفتها من العجوز بشوق ككنز، تأثيرها الكبير عليّ. فصرت مجنونا مثله أتتبّع خطاه كما يقتفي التلميذ أثر معلّمه..

زاد تعلّقي بمحمود، ورغبت في إنقاذه وإرجاعه إلى الحياة.. الحياة التي باتت لا تعني محمودا، فطلّقها وهاجر..

كنت قد أنهكت أخيرا، متعرّضا لتوعّك صحيّ. فزرت الطبيب ليفحصني، ممضيا لي على وصفة طبيّة، ومقترحا في وصفته تلك بعض الأدوية اللازمة للخلاص من الإرهاق، وبعض المهدّئات المريحة من التفكير والتوتر، لأنام في راحة وهدوء.. فقد كان محمود يشغل عقلي بالفعل ويرهقه، كحالة فريدة من حالات العزلة البشريّة..

شكرت الطبيب، وأنا أدسّ الوصفة في جيب معطفي، ذلك المعطف الذي لا يكاد يفارقني..

غادرته متّجها نحو الصيدليّة التي لم تكن تبعد غير بضع مئات من الأمتار عن عيادة الطبيب.

دخلتها، وحييت الصيدلاني باحثا في جيبي عن الوصفة.. تفاجأت من وجود أوراق أخرى، فظننت أنّ الوصفة تختبئ بين تلك الأوراق التي كنت قد نسيت فحواها. لذلك تناولت ورقة من بينها متهيّئا لي أنّها كانت بالفعل وصفتي..

لقد كانت وصفة طبيّة فعلا، غير أنّها لم تكن لي، بل كانت لمحمود..

ناولتها الصيدلانيّ، ظنّا مني أنّها وصفتي الجديدة. فأخذها بين يديه، وراح ينظر فيها تارة، وفي وجهي تارة أخرى متفرّسا، وعلامات الدهشة الممزوجة بالتساؤل تملؤه. ممّا أثار فيّ القلق والضجر.. وهممت أن أسأله بحنق عن الذي يجري داخله، ويثير دهشته، فإذا به يعاجلني بقوله، وقد ذهبت عنه بعض علامات الدّهشة:" تاريخ هذه الوصفة قديم."

قلت متسائلا في حيرة:" كيف ذلك؟ وأنا القادم للتّو من عند الطبيب!"

فردّ بضجر خفيف، وهو يلقي بالوصفة إليّ:" إذن فلست أنت السيّد محمود عوينات!"

قلت في دهشة، وقد راح من ذاكرتي أمر الوصفات والبطاقة اللتين أخذتهما من العجوز أم محمود:" محمود عوينات!!" وأصررت في نفسي قولا:" لماذا يلاحقني محمود حتى هنا؟" بينما كنت ألقي ببصري تجاه الوصفة الطبيّة، ليطالعني اسم محمود، واسم طبيبه المختصّ في أمراض العقم، وأمراض الجهاز التناسلي..

وتذكّرت أمر تلك الوصفات التي نامت دافئة في حضن جيب معطفي الطويل..

كنت قد نسيتها منذ ذلك اليوم الذي التقيت فيه العجوز، على عكس تلك الخواطر اللذيذة التي كتبها محمود، والتي لم أكن أستطيع النوم إلا وقد قرأت منها ما يملؤني سحرا وسكينة وتساؤلا أيضا..

أعدت يدي إلى جيب المعطف، وأخرجت كلّ ما فيه، فإذا هو لم يحو غير الوصفات الطبيّة، وبطاقة عليها اسم طبيب محمود، وعنوانه. ووجدتني أبحث بين تلك الوصفات عن وصفتي بينما تلهّى عني الصيدلاني، بصرف الأدوية لمرضى آخرين، وقد ضجر من فوضويتي، التي لم تكن تناسب رجلا منظما مثله، يحتاج عمله إلى السرعة والدقة، لكثرة المرضى وحساسيّة موقفهم..

وجدت وصفتي أخيرا، وناولته إيّاها من جديد متصنعا الأسف والاعتذار، حين عنّ لي استغلال هذه الفرصة التي أضعت مثيلتها عند الطبيب..

اختفى ذلك الصيدلاني بالدهاليز الداخلية لصيدليته، ليعود بعد برهة قصيرة بالأدوية المطلوبة طالبا ثمنها فدفعت له، متعمدا البحث عن المبلغ المطلوب بين قطع نقدية متعددة، لأربح وقتا أكلّمه فيه دون أن أثير ضجره، كان حدسي يقودوني في قضيتي، وإنّه لأمر عجيب ونادر أن يعتمد المحامي على الحدس. فقلت وأنا أمدّه القطع النقدية ببطء:" هل يمكنك أن تعطيني

فكرة عن طبيعة هذه الأدوية." فأخذ يشرح طريقة اعتماد الدواء الموصوف لي، وبيده قلم يمرّر حبره على مغلّفات علب الدواء، واضعا خطوطا.. فقلت، وأنا أبتسم بخبث دافعا نحوه الوصفات الخاصة بمحمود:" ليس تلك بل هذه."

صوب نحوي نظرات ملؤها التساؤل والريبة والاتهام، ممزوجة بغضب خفيف. ثم قال:" من أنت بالضبط؟ ولماذا تتلصّص على أسرار الناس، إلى هذه الدرجة من القرف؟"

كان كلاما موجعا كالطعنات، وقبل أن أقول شيئا يشرح الموقف ويزيل الالتباس، كانت جموع المرضى تتكدس حولي مصوّبة وجوهها نحوي ونحو وصفاتي، تتفرّس بنظرات بلهاء مقرفة، وملعونة، يحرّكها فضول ساذج مقيت..

وبسرعة، جمعت أدويتي ووصفاتي، واقتحمت تلك الجموع هاربا، متملّصا من ذلك الموقف المزعج، الذي لم يكن له من داعٍ..

عدت أدراجي إلى الطبيب كالذي ينفتح على سرّ..

لا أدري لماذا تتّخذ خطواتي في القضية مسارا عبثيا، ولا أدري لماذا أتعثّر هكذا موقعا نفسي في أخطاء بدائية..

سلكت الطريق باتجاه الطبيب بحزم، وكانت الأفكار والاحتمالات تحرّكني، وتتقاذفني.. ربّما لم يكن مجرّد عقم.. وها أنا ذا أصل إلى عيادة الطبيب.

دخلت، وحييت الكاتبة، سائلا:" هل بإمكاني ملاقاة الطبيب؟"

قالت ببعض الضجر:" ألست ترى جموع المنتظرين حولك؟"

التفتّ فإذا بقاعة الانتظار تملؤها جموع المرضى، فأصابتني الدهشة من عدد المرضى في بلدي.. "ربما كنّا جميعا مرضى، والذين في الخارج ليسوا أفضل حالا من هؤلاء.. ثمّة أمراض أخرى تقتلنا كلّ يوم

مرّات ومرّات في بلدي، فنحن لسنا أحياء لنشفى بل موتى مع تأجيل الدّفن..

إنّ إنسانا بلا أحلام، ليس بحيّ ولا معافى.. إنّ إنسانا بلا كرامة وبلا إحساس، وبلا ثقافة، وبلا خيال، هو إنسان مريض.. مريض إلى حدّ القرف والعفن، وإلى حدّ الموت أيضا.." هكذا حدثت نفسي في تلك البرهة الوجيزة، ثم التفتّ تجاه الكاتبة، وقلت مبتسما:" حسنا، إنّها مجرّد استشارة، لقد كنت هنا قبل لحظات."

وأضفت أمام دهشتها:" إنّه أمر أكيد."

قالت:" حسنا، معه مريض الآن، عندما يخرج، سأستأذنه لتلاقيه."

ابتسمت شاكرا إياها، ومتراجعا لأندسّ وسط الجموع واقفا، إذ لم يكن هناك مقعد لأجلس..

مرّت ربع ساعة من الانتظار المرّ، مرّت كأنّها شهر، ليس لأني كنت واقفا ومتعبا، بل لأني كنت أحترق.. كنت أتحرّق شوقا لمعلومة طبيّة، قد تزيل كثيرا من

الغموض، وتجلّي بعض الحق عن لغز بات يعايشني.. بينما كانت رائحة مقرفة، تصدر عن أجساد أولئك المرضى، وقد تفاعلت مع رائحة عطور رشت بشكل اعتباطي، لتسافر في الجوّ المعقّر بالأنفاس والجراثيم، مقتحمة أنفي، ومعكّرة للصفاء الذي تنعم به كلّ خلايا جسدي، فتخنقني، وتزيد توتري الذي يحرّكه فضول يأبى الانتظار والتعثّر أن يريحاه..

وها قد خرج ذلك المريض أخيرا، كان عجوزا بلباس قرويّ، قد حفرت السنون ملامح وجهه محيلة إيّاها إلى التجاعيد والوحشة.. كان يتوكّأ على عكّازه، متقدّما ببطء خارج العيادة، وهو يئنّ من حين لآخر مردّدا دون ملل:" يا رب لطفك وسترك.. يا رب عفوك.." حتى غادرنا إلى شوارع الضجر والضياع..

بينما كنت أراقب سير ذلك العجوز المسكين بكثير من الدهشة والرهبة، وأنا ألحظ انكسار الحياة على عتبات الهرم والعجز، كانت تلك الكاتبة تدخل إلى الطبيب مستأذنة إيّاه في دخولي.. وهاهي تناديني قائلة بابتسام:" لتتفضل سيدي، الدكتور في انتظارك."

شعور بالراحة أخيرا، غزا كياني المرهق. فابتسمت لها شاكرا، وتقدمت نحو باب غرفة مكتب الطبيب، التي كانت مخصصة للفحص أيضا. بينما كانت جموع المنتظرين المرضى ترمقني بكثير من الحسد والحنق. فشعرت بالزهو على غير عادتي، ورحت أخطو كما يخطو امبراطور..

طرقت الباب ودخلت، فرحّب بي الدكتور وصافحني. ثم أذن لي في الجلوس فجلست، مخرجا الوصفات من جيبي بلهفة. بينما صدح هو:" هل ستستشيرني بشأن الأدوية التي وصفتها لك؟"

قلت، وقد وضعت تلك الوصفات الخاصة بمحمود على طاولته، وفضولي يخنقني:" لا، لم أعد بسبب الأدوية، بل بشأن هذه الوصفات." ودفعتها نحوه، فأخذ يفحصها بين يديه، بينما أضفت:" أريد أن أعرف لأي مرض توصف هذه الأدوية؟"

قال الدكتور:" محمود عوينات.. الدكتور صحبي، اختصاص أمراض العقم.. فيم السؤال سيّدي المحامي؟"

قلت:" أرجو يا دكتور، أن يتسع صدركم لخطابي؛ هذه الوصفات تهمّ رجلا متّهما بقتل زوجته. لقد عرفت بالصدفة، أنّه كان يتعالج من مرض يتعلّق بالعقم وبالخصوبة.. حدسي يحدثني أنّ لذلك دخلا في الجريمة، وهذه الوصفات هي أول الخيط، لتأكّد صدق احتمالي من عدمه.."

ابتسم الدكتور، وقال:" إنّه أمر عجيب وغير مألوف، أن يتتبّع محام حدسه في قضيّة.. لكن ربّما كنت على حقّ، فهذه الأدوية لا تتعلّق بالعقم، بل بالعجز الجنسيّ."

غلبتني الدهشة وصدمت، إذ لم أتوقع أن أسمع كلمة بهذه الخطورة في قضيّتي، رغم سيري وراء حدسي، الذي كنت فيه كمن يُسحب بتأثير طاقة غيبيّة، تدفعني بقوة. وتجذبني كما يُقاد الجمل بحبل..

ووجدتني أردّد في دهشة:" العجز الجنسي!!"

فأضاف الدكتور:" حسنا، أنّها أدوية تعمل على إعادة إحياء الخلايا الميتة، وتنشيط الهرمونات.. وعلى كلّ، يستحسن الاتصال بالدكتور "صحبي". سيمكّنك مما تريد معرفته أكثر، فهو المباشر للحالة والمختصّ.." وختم حديثه بالابتسام الديبلوماسي المألوف، فصافحته شاكرا إياه ومبتسما ببرود..

غادرت عيادته، شاقا تلك الجموع التي أخذت تتدافع نحو الكاتبة، للفوز بملاقاة الدكتور. بينما كنت ذاهلا كأني لا أراهم..

تجاوزت الباب الخارجيّ للعيادة بخطوات مرهقة، كانت الدماء في جسدي تتجمّد، وكانت الأفكار تتقاذف عقلي ككرة.. وكانت السماء تتلبّد بالغيوم الرماديّة فجأة، وتتراكم كتجمّع مخيف لللعنة والغضب.. انقلب الجوّ فجأة بعدما كانت شمس الشتاء الدافئة تواسي أناسا يدقّ البرد عظامهم مثلي. وما هي إلا لحظات حتى هبّت ريح مخيفة.. كانت قويّة ومزلزلة تخترق تلك السكينة التي تعمّ المدينة في ذلك المساء الشتائيّ، كانت الريح تُطير كراسي المقهى المجاور وتقلبها، وكان

الناس يركضون في ذعر وخوف ملتفين في معاطفهم الخشنة.. أمّا أنا فقد وجدت الريح تدفعني دفعا نحو الضياع والتيه بين الشوارع والأرصفة، وكان التراب يكتسحني، ويملأ عينيّ قهرا. بينما كنت ألفّ تلابيب معطفي حول جسدي، جاذبا إياه من الريح التي كانت تنزعه عنّي نزعا، بكل ما أوتيت من طاقة نفخ وصفير.. كان صفير الريح موحشا كمن يعزف في ناي لحنه الحزين، وكنت أتهاوى وأتساقط مذعورا في ذلك الجو المخيف. وقد صمّ أذنيّ صوت الرعد القويّ المزلزل..

كان صوت الرعد قويّا ومزلزلا ومتواصلا، وكأنّ الطبيعة تكشف عن وجهها الغاضب، عازفة سيمفونيّة العذاب واللوعة.. وكانت الريح تولول في وحشة، محيلة أشجارنا الشامخة على الانكسار والهزيمة. فتهاوى كثير منها منكسرا، وخرّت أغصانها على الأرض ساجدة في ارتطام عنيف ومدوٍ.. لقد حطّمت الريح كبرياء الأشجار وغرورها، فأحالتها مبتورة كالرجل بلا نسل..

حلت بالمدينة لعنة مفاجئة، أحالتنا على العجز والخيبة.. فما أضعفنا، وما أهون قوانا تجاه جبروت الطبيعة. فقد كنت أتهاوى، تقودني الريح والخيبة في طريقي، والوحشة والرهبة تكتنفاني.. وها أنا ذا أصل دفعا إلى بيتي، كأنني ملعون أطرد.. تتقاذفني الريح من كلّ حدب، فأفتح الباب بسرعة وأدخل، لتفتكّ الريح من يدي مقبض الباب وتغلقه في قوة، مصدرا ارتطامه صوتا كإطلاق رصاصة. وكأنّني سجين يُدفع داخل زنزانة..

تملّكني الذعر للحظة، فيما كنت أسارع لأغلق النوافذ والأبواب الفرعية لشقتي المستأجرة.. كنت دائما أشعر أنّ مكوثي في بلدتي مؤقت ولن يدوم، رغم مرور تسع سنوات على استقراري بها.. وكنت مثل آخرين من أمثالي الضجرين، نتحيّن فرصة للهروب من مدينة اللعنات تلك..

لأجل ذلك، كنت قد شرعت منذ ثلاث سنوات تقريبا، في بناء بيت لم يكتمل بناؤه حتى الآن في مدينة بعيدة،

ذات حدائق وأزهار.. نظيفة ومباركة من الربّ، بعيدا عن بلدة العجز هذه..

وهاهو العجز يلفّ بلدتنا الصغيرة الآن.. هاهي الطبيعة الغاضبة تحيلها على الشقاء والخيبة.

الأمطار التي بدأت تتساقط على شاكلة قطرات خجولة، صارت أكثر جرأة فجأة.. فانهمرت غزيرة غاضبة، مؤدية وصلتها الموسيقية، ضمن تلك السيمفونية التي أخذت الطبيعة في عزفها بمنتهى التناسق والجمال، في ما كان الرعد يتّخذ مكانه في العزف، كضارب طبل محترف، يعيد إلى السامعين المنتشين انتباههم من حين لآخر، كلّما تاهوا سحرا وسفرا مع وقع تساقط الأمطار المقدّس، وصوتها الذي يشبه ترانيم الصلاة أو التسبيح..

كان بشقتي غرفة منعزلة، تفتح نافذتها البلورية على الشارع والأشجار.. فسارعت إليها مراقبا هطول الأمطار، ووقع ذلك الهطول على الأرض والشجر، متمثّلا قول محمود في خواطره:" **أيّتها الأمطار..**

يا من لأجلك غنّت الأطيار..

وبسحرك تفتّحت الأزهار..

يا من تؤنس وحدة الأشجار..

وتباركين الديار..

يا من تصغين لحكاياتي..

وتواسين عذاباتي

حين تذبل على عتبات الحياة جذواتي..

إليك زهوي..

إليك شغف الأمنيات..

يحيا المطر..

يحيا إيقاعه يفضّ بكارة الأرض، يُحيي الأمل..

يحيا إيقاعه على الحيطان وعلى الشجر.."

ووجدتني أسافر تائها في ذلك المساء الذي انقلب رومانسيّا ممطرا، متأمّلا من نافذتي ذلك الجوّ

الرماديّ، وحيدا كغراب منعزل لا يدري أحد مكان غربته..

مرّ ليل يبكي على المدينة، وكنت فيه بعيدا ووحيدا، مستقيلا على دكّة الانعزال والوحشة، فلم يغمض لي جفن من التفكير والضجر.. وها قد أطلّ الفجر يحيلنا على الكآبة والبؤس.. وأشرقت الشمس خجولة، تطلّ خيوطها بحياء، من خلف غيوم تتجمّع لتفترق، وتفترق لتسافر.. أما أنا، فلم أتمالك شوقي، فامتطيت سيارتي وارتحلت إلى المدينة البعيدة، قصد ملاقاة الدكتور المعالج لمحمود..

كانت رحلة طويلة شاقة، وكنت أسرع بقيادة مجنونة في ذلك اليوم الغائم.

إنه يوم الخامس والعشرين من فبراير..

وصلت المدينة البعيدة، التي ملأتها الضوضاء والحركة. وتناولت البطاقة الخاصة بالدكتور "صحبي" مطّلعا على عنوانه، ومطالعا وجوه الناس في شوارع تلك المدينة النشيطة، شيء ما أشعرني أن عنوان

الطبيب "صحبي"، يرتسم أيضا على تلك الوجوه الشاحبة المرهقة، محفورا بعمق على ملامحها.. وقلت في نفسي:" ربما كنا جميعا عجزة.."

كنت قد أوقفت سيارتي على جانب شارع كثيف الحركة، غير أنه كان من السهل عليّ أن أحادث من شئت من المارة الذين كانوا يمرّون بجانبي على رصيف مكتظّ ووسخ..

استوقفت كهلا خمسينيا، وقلت وأنا أطلّ من نافذة سيارتي:" عفوا سيدي، هل تعرف أين يقع حي النسيم؟"

فكّر قليلا وقال:" حي النسيم.. حي النسيم، هل هذا الحي موجود أصلا؟"

أضفت موضحا:" ليس حي النسيم على وجه التحديد.." وأخرجت بطاقة الطبيب قائلا:" أريد أن أعرف أين يقع بالضبط هذا العنوان؛ عمارة الازدهار، خلف الحديقة العمومية، الطابق الثاني." وأضفت أمام ذهوله:" الدكتور عامر صحبي، اختصاص أمراض العقم والجهاز التناسليّ."

ردّ كمن يلهم الجواب فجأة:" آه! الدكتور صحبي.. عرفت الآن إنه محاذٍ للخربة."

قلت مندهشا:"الخربة!"

بينما أضاف هو:" حسنا يا سيدي، أكمل سيرك في هذا الطريق الطويل، أترى تلك الجرة المكسورة؟ إنه مفترق بعيد.. أتراها؟"

ألقيت ببصري بعيدا، فإذا أنا أبصر ذلك المفترق. فأومأت برأسي مجيبا، فأضاف:" عند وصولك إلى الجرة المكسورة، استدر يمينا.. ستجد مجموعة عمارات، تنتصب إلى جانب بعضها، العمارة الثالثة هي عمارة الدكتور، أعني العمارة التي توجد بها عيادة الدكتور صحبي، وختم حديثه بابتسامة، ولمعت عيناه بخبث خفي، لا يكاد يظهر.. شكرته، وقدت سيارتي نحو ذلك المفترق البعيد..

وصلت المفترق، فأوقفتني إشارة مرور حمراء. توقفت لدقائق متأملا تلك الجرة التي انتصبت في المنتصف،

في مركز المفترق الذي يفتح الطريق على منعرجات في أربعة اتجاهات..

وكان كلّ اتجاه، يفتح على مسارات فرعيّة، وطرق أخرى، لتستمرّ الرحلة إلى ما لا نهاية.. كانت الجرّة كبيرة الحجم، بشكل يجعلها ظاهرة للجميع حولها. وقد توسّطها أبزيم يدفع الماء إلى الخارج، فيتدفّق، ويفيض على جنبات الدائرة التي توسطتها الجرّة. فاستحالت الدائرة خضراء نضرة، وقد انتشرت بشكل دائريّ ومنظّمٍ ورود رائعة البهاء، بهيّة وزاهية من مختلف أنواع الورود وألوانها..

كانت الجرة مكسورة، يشقّ بطنها جرح طويل وغائر، يسمح للماء بأن ينضح نضحا خفيفا لا يكاد يُلاحظ. ولكنّه كان يغطي تلك الجرة، فيغسلها ويطهرها دائما أبدا، أبدا دائما، على امتداد ساعات اليوم.. وكانت في الأسفل، ثقوب بشكل دائريّ، في ما يشبه الجدول، على جنبات تلك الدائرة التي احتوت الجرة. وكانت تلك الثقوب، تمتصّ تلك المياه المتدفقة، لتعيدها إلى الجرة، فتضخّها من جديد نحو الورود، والأرض، والثقوب.. يا

لها من دورة، ويا لها من لعبة متواصلة إلى ما لا نهاية..

انتهت لحظات التأمل، وتحولت العلامة المرورية إلى خضراء. فانعرجت سريعا إلى اليمين، وتراءت لي العمارات شامخة، وسط حي كامل من المحلات التجارية والبنوك والمقاهي الفاخرة.. وكانت الحديقة الواسعة، تظهر لي أدنى ذلك الحي، وقد انتصبت فيها أشجار شامخة وورود، ومقاعد جلس إليها المتعبون، وهم ينسحبون للحظة قصيرة من هموم الحياة، وإيقاع دورتها المتسارع..

قدت سيارتي نحو المأوى، ركنتها ونزلت متقدّما نحو تلك العمارة الثالثة، فوقفت أمام بابها الرئيسيّ، متأمّلا وباحثا بين اللافتات، عن اسم الدكتور "صحبي"، فوجدت اللافتة الخاصة به بعد بحث طويل مضجر، وقد وضعت في ذيل اللافتات على اليسار، كأنّها كانت تستحي من نظيراتها..

تقدّمت نحو الدرجات بعدما عرفت عنوان الطبيب، وقد أخذت أقفز بسرعة وبنشاط، تلك الدرجات الواسعة. ثم هدّني التعب فجأة، وصرت أصّعد ببطء وبصعوبة، في ما كانت هي تضيق وتلتوي كلّما تقدمت أكثر، حتى وصلت الطابق الثاني. وقد أخذت وقتا طويلا في ذلك الصعود لم أتوقّعه!

كان رواقا واسعا، فُتحت على جانبيه مكاتب قليلة، لم تتجاوز ثلاثة في ما أذكر.. تأملت تلك المكاتب، حتى تراءت لي عيادة الدكتور "صحبي"، تتوسطها. وقد وضعت لافتة أخرى على الحائط أكثر جرأة بخط كبير وواضح. فقلت في نفسي:" ربما يكون المرء أكثر جرأة في بيته.."

دلفت إلى العيادة وأنا ألهث، وتراءت لي جموع المنتظرين في قاعة الانتظار تلك.. كانت جموعا كثيرة العدد، يرتسم على وجوهها جميعا خيبة واستسلام.. كانت وجوها شاحبة بنظرات منكسرة ومستسلمة، ولم يكن في القاعة غير الرجال، باستثناء السكرتيرة التي تلهت عني بالخط في أوراقها، ومتابعة شاشة حاسوبها،

بينما رمقتني تلك الجموع الكثيرة، بنظرات حزينة ومواسية. كما يواسي الجنود بعضهم في استشهاد جنديّ أثناء معركة. وقد خيّم عليهم الحزن، كأنهم يحضرون مأتما..

تقدمت لاهثا نحو السكرتيرة، وقلت:" نهارك سعيد آنستي."

فردّت ببرود:"مرحبا." ثم عادت إلى الصمت.

فأضفت:" هل يمكنني لقاء الدكتور؟"

قالت كمن يستبطن التشفي:" هل معك بطاقة مواعيد؟ أم تسجيل جديد؟"

رددت كمن يدفع عن نفسه تهمة بذعر:" لا، ليس الأمر كذلك إطلاقا، أرجو أن يتّسع صدركم لي، لقد أقبلت من بلدة بعيدة، لألتقي الطبيب في موضوع خاص."

والتفتّ، لأرى نظرات الجمع حولي تتّقدُ تساؤلا، وفضولا. وإذا بالسكرتيرة ترمقني بنظرات حيرى، ولا أدري كيف جمعت تلك النظرات بين الاتهام،

والسخرية، وكأنّها تقول:" كلّ هؤلاء يريدون ملاقاة الطبيب في أمر خاص!!"

غير أنّها قالت، وقد رفعت صدرها إلى الأعلى بشكل خفيّ لا يكاد يظهر، فبرز جانب من نهديها، محاولة إغرائي أو اختباري:" هل أنت زميله أم قريبه؟ ماذا أقول له تحديدا؟"

كانت جموع المنتظرين، وخاصة الواقفين منهم، تسترق النظر إلى تلك السكرتيرة الفاتنة من حين لآخر، بحذر وارتياب. كأنّهم يحلمون بالحب خائفين من جلبة معاركه، فيختبرونه من خلال نظرة عديمة الفائدة..

ربما كان هناك خوف أكبر يسيطر على العقول كغول، أو ربما هو مرض أُشربناه منذ الطفولة. فالمجتمع الذي لم يستنشق هواءً نقيّا، قد صوّر لنا الأنثى كقطعة شهد، نشتهي عسلها ونخاف لسع نحلها!!

كنت أعرف أنّ الشيء الذي نركّز عليه، ونطيل التفكير فيه إيجابا أو سلبا، تزيد مساحة اتساعه في عقولنا ليسيطر عليها، ونصبح نحن عبيدا له..

كنت أرى تلك الجموع المحملقة فيّ وفي السكرتيرة، عبيدا لأمراضها الكثيرة، فهي مكبوتة ومحرومة، منعزلة ومعزولة، سجينة الأفكار المغلقة، داخل أسوار وحدتها، وبيئتها العفنة، في مدن بلا حدائق، وبلا أزهار..

قلت للسكرتيرة:" حسنا يا آنستي، قولي له إنني محام، أريده على عجل من أجل قضية قتل، بخصوص مريض من مُعيديه."

وأضفت أمام دهشتها، وذعرها:" الأمر أكيد، والوقت يضغط، قد تساهمون في إنقاذ حياة بريء.."

سارعت المسكينة إلى غرفة مكتب الطبيب، وطرقت الباب في ذعر، فأذن لها..

فَتحت الباب ودَخلت سريعة، بينما كان رجل في الخمسين من عمره، يخرج من عند الطبيب منكسرا، يتحرّك ببطء وسكينة، كأنّه راهب أو مكتئب..

عادت السكرتيرة بسرعة لتقول بجدّ:" تفضّل."

شكرتها كعادتي، وتقدّمت نحو المكتب سريعا داخلا ومغلقا الباب ورائي..

كان الدكتور "صحبي" عجوزا بعد، يبدو سنّه قريبا من الخامسة والستين، يلمع رأسه الأصلع تحت الضوء الخافت لمصباح ضئيل، ثُبّت فوق مكان جلوسه. وكانت بعض الشعرات البيضاء الطويلة، تنبت على حواف جمجمة رأسه المكسوّ جلدها، بلونورديٍّ..

كان رأسه مخروطيّ الشكل، وكان أنفه طويلا، وحادّا، بشكل يندر أن تراه، وكانت عيناه الواسعتان، تتخفّى لتجحظ وراء نظارة طبيّة، لا أدري لماذا اختلفت عن نظيراتها عند أطباء آخرين. فقد كانت عريضة، شكلها شبه منحرف..

أما جسمه، فقد كان ظريفا حقّا، إذ امتلأ من الأعلى، فانتفخ بطنه وعرض صدره. بينما كان نصفه السفلي معتدلا، يميل إلى النحافة..

كان يملأ مجلسه كملك، فاقتربت منه بهدوء، وأنا أتوجّس مشاعر الحذر والرهبة، وأتحيّن على لساني آيات التبجيل والإكرام، كمسكين يدخل على سلطان..

صافحته وقلت:" تحياتي واحتراماتي سيّدي الدكتور."

ظلّ جالسا، ولم يكلّف نفسه القيام لمصافحتي، بينما ردّ ببرود، وقد أذن لي في الجلوس، بإيماءة من يده:" خيرا سيدي المحامي."

عرفت من بروده وغروره الملكي، أن لا مجال للثرثرة في حضرته، فقلت وأنا أختار ألفاظي، وأختصر خطابي بمنتهى الدقة:" سيّدي الدكتور، أرجو أن يتّسع صدركم لخطابي، أنا شكري سلمان، محامي الدفاع الخاص بالسيّد محمود عوينات، المتّهم بقتل زوجته المدعوّة مريم الصافي، بتاريخ الثاني عشر من أبريل لسنة ستّ وتسعين وتسع مائة وألف. لقد صدر حكم بالإعدام بشأن المتّهم، بتاريخ الخامس من ديسمبر لسنة ثمانٍ وتسعين وتسع مائة وألف.

قاطعني ببرود، يخفي ضجرا خفيفا:" والمطلوب؟"

قلت متلطّفا:" السيد محمود عوينات، كان يتعالج عند سيادتكم من مرض لا أفهم تفاصيله. مطلوب من حضرتكم، مدي بتقرير طبي حول حالته الصحية.. قد يساهم ذلك في التخفيف عنه، أو الحكم ببراءته."

ردّ الدكتور ببرود أقرب إلى السخرية:" كلّنا في خدمة العدالة.."

ثم ضغط زرّا أمامه، فجاءت تلك السكرتيرة الفاتنة، التي لا أدري لماذا بدت لي كجزء من العلاج في فلسفة هذا الدكتور الغامض.. كانت شابة عشرينيّة، بملامح صافية ونضرة، عيناها خضراوان كالحدائق المغيّبة في مدينتي، وشعرها الحنّائيّ الطويل ينسدل خلفها كليل مقمر، بينما اكتنز صدرها باستحياء، كعشٍّ يخفي يمامتين خجولتين يطلّان على العالم بحذر. وقد انفتحت ميدعتها البيضاء على ساقين كريستاليتين، وانحصر فستانها الأحمر القصير فوق ركبتين لمعتا في الضوء كياقوتتين.. كان الفستان يضغط على مفاتن جسدها الطازج البكر، وكانت خطواتها تذيب قلوب شعب من

الرجال المكبوتين، المحاصرين والمعزولين داخل قاعة انتظار ضيّقة..

جاءت تلك السكرتيرة، فانخفض بصري إلى الأرض خجلا، بينما قال الدكتور:" ابحثي لي عن ملفّ السيد محمود عوينات."

قالت:" حاضر." وراحت تخطو كعارضة أزياء مزهوّة إلى الخارج. بينما كنت أسترق النظر إليها، كمكبوت جائع إلى الأجساد والخيالات..

أعاد لي الدكتور انتباهي، حين صدع بخشونة:" سيّدي المحامي، أرجو أن لا تؤاخذني، هل يمكنك مدي بوثيقة تثبت مباشرتك للقضيّة؟ فكما تعلم هذه أسرار الناس، وخلافا للضمير، فإني قد أتعرض للمساءلة القانونية.."

فتحت محفظتي وأنا أقول:" معك حق، كلي أسف سيّدي."

كنت أقول ذلك وأنا أطرح على طاولته وثائق مختلفة؛ توكيل العجوز "أم محمود" لي، وملفّ القضية الذي

تناثرت أوراقه، وأخيرا كرّاس محمود. بينما كان الطبيب مندهشا، وهو يتفرّس في تلك الأوراق المتناثرة والكراس، يصاحبه شك وريبة، حتى بدا لي كضابط شرطة المرور الذي وقع بين يديه مهرّب بالصدفة..

أعدت كرّاس الخواطر سريعا إلى محفظتي، ومددته بتوكيل العجوز، فأخذ يطالعه، فيما كنت أجمع الأوراق المتناثرة داخل ملفّها..

أعاد إليّ التوكيل مبتسما، بينما كنت أراجع ملفّ القضيّة سريعا، حتى وقع ناظري على تقرير الطبيب الشرعي. والتفتّ ناحية الطبيب هامّا باستغلال فرصة، فوجدت الطبيب يرمقني بفضول لذيذ..

عندئذ خطر لي استغلال الفرصة، فابتسمت قائلا، وأنا أمدّه بالتقرير الشرعي طامعا في مزيد الإحاطة بمعطى كنت قد أهملته:" هذا هو تقرير الطبيب الشرعي الأصلي." وأضفت، وهو يتناوله بيده، كالذي وقع في فخ:" هل يمكنك أن تعطيني إيضاحات أكثر حول التقرير؟"

قال الطبيب وقد انفتح بزهو على خيلاء علميّة:" الطعنة القاتلة كانت مرتعشة، صدرت عن آلة حادّة اخترقت الأمعاء الغليظة.. وظلّت الضحيّة تنزف لمدة نصف ساعة، مما حتّم صعوبة إنقاذها، وقد وجدت بصمات الضحيّة على المقبض."

أرجع الطبيب التقرير إليّ، وأضاف:" كيف حكم على محمود بالإعدام، ولم تكن بصماته موجودة على أداة الجريمة؟"

قلت بأسف:" محمود اعترف."

ردّ الدكتور بسخرية لم أتوقعها:" الاعتراف سيد الأدلّة.." وأضاف مغيّرا الموضوع:" تأخرت."

ثم ضغط الزر من جديد..

كانت قد مرّت نحو ربع ساعة على خروج السكرتيرة، وهاهي تعود وبصحبتها الملفّ الطبيّ الخاص بمحمود. ناولَته الدكتور وقالت:" لم يكن الأمر سهلا، كان يختفي في الأرشيف بين ملفّات كثيرة عفا عليها الزمن، ولم

أكن لأجده لولا مساعدة الحاسوب. فالسيّد محمود كان قد قطع مواعيد علاجه من تلقاء نفسه منذ شهر يناير لسنة ست وتسعين، مغفلا مواعيد العلاج اللّاحقة."

غادرت السكرتيرة، بينما راح الطبيب يطّلع على الملفّ باهتمام، ثم تناول قلما، وأخذ يدوّن تقريره، قائلا كأنما يستبطن أسئلة داخلي:" السيد محمود عوينات يعاني من مرض نادر، يجمع بين العضويّ والنفسيّ، وكلاهما متعسّر العلاج."

قلت:" هل بإمكانك الإيضاح؟"

أضاف مفسّرا:" عاش طفولة معذّبة، وغير سويّة.. كان أبوه يقمعه ويعنّفه، إلى الحد الذي جعله يتعنّف على جهازه التناسلي.. لنقل ببساطة أنّه تعرّض لإصابة أو حادث في سن المراهقة، ممّا سبّب له أضراراً فادحة، أوقفت النمو الطبيعي لتلك الأعضاء.. وهذا ما انعكس عليه نفسيّا من زوايا متعدّدة، أهمها خوفه من المعاشرة، مما يجعله غير قادر عليها، حتى في حالة تماثله للشفاء عضويا."

قلت منتصرا:" الآن فهمت كل شيء.."

كان الدكتور قد أنهى تقريره، فسلّمه لي في ظرف مغلق. وقال وهو يودّعني كمن يخلط المزح بالجدّ:" أرجو أن لا يقع استدعائي للشهادة، لكن إن حصل ذلك، فسأكون جاهزا على ذمّتكم لإنارة العدالة.."

قلت وأنا أودّعه مصافحا، بعدما أخفيت ملفّ القضية والتقرير الجديد داخل محفظتي:" سنحاول ألّا نزعجك، لكن ربّما لا يمكننا الاستغناء عن شهادتك."

وغادرت عيادته شاكرا له وللسكرتيرة، متجاهلا نظرات ذلك الجمع الذي بدا لي أنّه ليس له من شغل غير مراقبتي والتفرّس فيّ بنظراته..

قدت السيارة عائدا إلى البلدة، وكنت على امتداد الرحلة أفكّر بالقضية، ساهيا وتائها وسط طريق طويل وموحش تسلكه عربات قليلة متباعدة..

هل يمكن أن يقتل محمود بسبب عجزه؟

ربّما عيّرته مريم بعجزه، فقتلها في لحظة غضب! وربّما انتحرت مريم بطريقة بشعة وغير متوقعة، نتيجة إحساسها بالغبن والحصار.. فقد كانت محاصرة من ذهنيّة مجتمع محافظ ومغلق، لا يتيح للمرء حتى التكلّم في هذه المواضيع.. مجتمع لا شك أنّه كان سيرمي مريم بوابل من التّهم المتعلقة بالشرف، إن هي طلبت طلاقها من محمود، فقد يتّهمونها بخيانة زوجها، والميل إلى رجل آخر..

الشرف؟ الخيانة؟ ماذا لو كان هذا هو سرّ القضية؟ ماذا لو كان محمود قد اكتشف خيانة مريم، وهي المحرومة من الحبّ؟! ألا يصبح من الطبيعي أن يقتلها محمود انتقاما لشرفه، داخل ذلك المجتمع المغلق؟! لماذا كانت الطعنة مرتعشة؟ وكيف يمكن لإنسان طبيعي أن ينتحر بطعن نفسه!! ألم يجد أسلوبا آخر أكثر رحمة ومعقولية، كشرب جرعة زائدة من الدواء مثلا!!

يبدو هذا الأمر نادر الحدوث، بشكل يقرب إلى المستحيل. إذن هل يكون محمود هو القاتل فعلا بأيادي

مرتعشة؟!! هل وكّلت في هذه القضية لأخلّص محمودًا أم لأورّطه؟

تذكّرت لقائي بمحمود في السجن، وتلك الهبّة التي كان عليها إذ انتفض غاضبا وحانقا، لمّا افترضت خيانة مريم. فزدت تيها وضياعا ولم أخلص إلى نتيجة. بل زاد انفتاحي على الاحتمالات غير الأكيدة..

يا للسخرية، كيف سمحت لهذه اللعبة أن تورّطني داخل خيوطها، لأتحوّل تدريجيا من محام إلى محقق!!

حلّ الغروب على الدنيا، وكنت أطلّ على مشارف بلدتي. وكانت السماء تلتفّ بلون داكن من الغيوم الحزينة.. كانت بلدة صامتة كئيبة كما عهدتها، وكان المارّة قليلين في ذلك الجو البارد، وكانت نسمات باردة تهبّ محيلة جو المدينة على الانعزال والكآبة..

وصلت بيتي متعبا فنِمتُ، نِمتُ نوما عميقا كمن مات. كنت جائعا ومتعبا فهدّني النوم كالمستقيل من الأحداث، جرّاء إرهاقي الشديد والضجر الذي كان يلفّ دماغي المنفتح على الاحتمالات والتوتّرات، فاستسلمت وهويت

على فراشي كجذع شجرة كسرته الريح في يوم عاصف..

انقضى يوم وحلّ آخر.. لم أغادر بيتي يوم السادس والعشرين من فبراير، اعتكفت في بيتي لأرتاح، صانعا بعض الطعام سريع الإعداد، معوّضا وجبات طعام الأمس الضائعة..

خصّصت ذلك اليوم للراحة، فلم أفعل شيئا عدا الاستحمام والأكل، والسكون في فراشي، متابعا التلفاز تارة، ونائما تارة أخرى.. جميل ذلك الانسحاب، وعلى الإنسان أن ينسحب من اللعبة الدائريّة للحياة مرة بعد أخرى ويتأمل، كي لا تعصره رحى تلك الدائرة سريعة الدوران المسماة الحياة..

في اليوم الذي أعقبه، يوم السابع والعشرين من فبراير، انطلقت نحو السجن لألتقي مديره قصد النظر في ملف إجراءات نقل محمود إلى مستشفى الأمراض النفسيّة والعصبيّة..

كان يوما مشمسا ولطيفا، على عادة بعض أيام الشتاء المنتقاة الدافئة، وكأنّ الشتاء يستعير تلك الأيّام من الربيع، رحمة بنا، وكي لا نزهد فيه فلا نذكره في أشعارنا..

وصلت إلى السجن فرحبوا بي كزميل من رجال القانون.. ربّما ليس الرجل منّا أكثر جرأة في بيته فقط، بل أكثر احتراما وتبجيلا أيضا..

أذن لي مدير السجن بالدخول، فدخلت وسلّمت عليه بحرارة. ثم جلست بانتظار قهوة طلبها لي، فقلت:" هل ستقول لي مبارك؟"

ردّ مازحا:" مبارك، لكن ما السبب؟"

قلت:" ألن يؤذن لمحمود بالانتقال إلى مستشفى الأمراض النفسيّة والعصبيّة؟"

ردّ السيد المدير بلهجة أقرب إلى الحزن:" أتعرف؟ هذه الحياة ساخرة يا سيّدي، محمود سينقل فعلا إلى

المستشفى. لكن ليس لأنّك تفترض أنّه مجنون، بل لأنّه مريض جسديّا."

قلت متفاجئا:" مريض جسديّا؟! كيف ذلك؟!! وأين ستنقلوه؟"

قال موضحا بتعاطف:" محمود كان يتألم في صمت، وفي ليلة الاثنين من الأسبوع المنصرم، ليلة الثاني والعشرين من فبراير، كانت نوبة آلام محمود أكبر مما اعتاد أن يصبر عليه، فاستدعينا طبيب السجن الذي عاينه، وقرّر نقله على جناح السرعة إلى المستشفى، وبنقله إلى هناك وإثر الفحوصات والتحاليل.. تبيّن أنّ محمودا يعاني الإصابة بالمرض الخبيث، في مراحل متأخّرة.. أعدناه إلى السجن، وقد وصف له الطبيب بعض المسكنات إلى حين نقله إلى المستشفى الجامعي."

قلت:" متى ستنقلوه؟ وماذا عن طلبي عرضه على الفحص النفسي والعصبي؟"

قال:" غدا هو الأحد، إذن سيتم نقله بعد غد الاثنين الفاتح من مارس.. أما بخصوص الفحص الطبي النفسي الذي تطلبه، فإني أظنّ أن النيابة ستتصرف.. ربما شكّلوا له لجنة خاصة ترافقه بالمستشفى!!"

أمضيت نحو نصف ساعة بجانب السيّد المدير، كنت ضجرا، وكان الحزن يخيّم عليّ.. لم أعد أجد لجهدي معنى.. كنت مصدوما وتائها. وغزا رأسي دوار مقرف، أحالني على الضياع. فلم أعد أفهم ما يجري حولي، وكان المدير يتحدث بثرثرة لا أذكر فحواها، وكنت أومأ برأسي ليظن أني منتبه إليه وأفهمه، في ما كنت ضائعا وبعيدا إلى أن هدّني الضجر أخيرا، فقمت من مجلسي كالذي يحرقه الجمر..

صافحته وقلت:" ألقاك يا صديقي."

ردّ:" دعنا نراك.."

وهكذا انقضى لقاؤنا، وخرجت ضائعا إلى شوارع مدينتي..

كانت المرّة الأولى التي أستشعر فيها شعورا كذاك.. شعرت ساعتها أني أتطابق مع المدينة، مدينتي.. فقد كنت ضائعا مثلها. فاحتضنني بؤسها، كما يحتضن الدجاج فراخه.. أيّ شيء حرّكني للتعاطف مع محمود، بهذا القدر من التماهي؟ ولماذا تثيرني قضيته بحثا عن أمل ضائع؟ لماذا أريد لمحمود البائس أن يعيش ويستمرّ؟ أن يعود للحياة وللأمل!

ما الذي يعنيني إذا ما انتهى بائس مثله، ومات في صمت وخيبة؟

هل سيتغيّر شيء في حياتي الرائقة؟!

ماذا لو أعدموا محمودا؟ ما همّني إن كان مذنبا أو بريئا؟!!

أهي المرة الأولى التي تنتهك فيها العدالة؟ أم هي المرة الأولى التي ينتهي فيها قدر إنسان، وينفتح على خيبة؟!!

ما الذي يحوّل محاميا مثلي إلى فيلسوف؟!

ربما تقاسمت أنا ومحمود شيئا ما، فقد كنّا ننتمي إلى البلدة الخائبة، تلك البلدة التي تقتلنا وتمتصّ طاقتنا بلا فائدة.. تلك البلدة التي حوّلتنا من بشر إلى كائنات زبالة..

إنّ دفاعي عن محمود وسعيي لفهم قضيته، هو حركة مقاومة أخيرة، قبل أن تموت تلك الأشياء التي طالما آمنت بها.. ربّما كان دفاعي عنه، وتعاطفي معه، هو دفاع عن نفسي من الباب الأوّل. لأستمرّ واقفا قبل ذوباني في لعنات هذه البلدة، قبل أن أتحوّل إلى كومة زبالة مهملة على قارعة شوارع المدينة الغول.. تلك التي تقتلنا في صمت.

كان المساء يحلّ بعد على المدينة، حينما كنت أجتاز الشارع الطويل المؤدّي إلى بيتي، كنت ضائعا وشاردا حين مرّت درّاجة ناريّة بقربي، قادها صاحبها بسرعة جنونية.. كانت قريبة جدا مني حتى كادت تدوسني بحماقة، وترديني قتيلا أو جريحا..

تسارعت دقّات قلبي وعمّني الذعر جراء هذا الموقف الذي لم أتوقع حدوثه.. كان موقفا شيطانيا قطع السلام الذي كنت أجده، فتسمّرت بمكاني ذاهلا. ولم أستطع أن أواصل سيري إلا وقد أنهكت خوفا ورعبا. ألهذا الحدّ تبدو الحياة مقامرة غير مضمونة؟!

واصلت سيري بهدوء، وقد ألقت بي خطواتي فوق الرصيف وأنا أنظر حوله فتراءى لي كلب مسكين.. كان ينام على الرصيف متألّما، نظرته فبادلني نظرات ملؤها التساؤل والتوسّل، صاحبها أنين مكتوم.. فقلت ربّما كانت الكلاب تستشعر معنى للخيبة أيضا كفلاسفة!!

عدت إلى بيتي في ذاك المساء لأرتاح، مطمئنّا ليوم غد، الأحد الثامن والعشرين من فبراير الحزين..

أمضيت ليلي أفكّر بتلك العجوز "أم محمود"، كيف ستتلقّى خبر نهاية محمود الوشيكة وهي تنفتح على فصل أخير من الأقدار الفاجعة التي كان يتحملها؟

وانقلب تعاطفي مع محمود، إلى تعاطف مع تلك العجوز المسكينة. وتذكّرت قولها:" فليكن ما أراد الله فلن أكون إلا راضية."

كنت أفكّر بزيارتها في الغد. ومن الصباح، وجدتني أنطلق نحو تلك الأحياء الهامشيّة لألتقي الخالة العجوز "أم محمود".. وصلت عند الساعة العاشرة صباحا، الحي الذي تسكنه العجوز. فتفاجأت من تكدّس الجموع حول البيت، بل كانوا ينتشرون جلوسا على الحيّ كلّه، حتى أنّك لا تجد موضع قدم تمرّ منه..

اخترقت تلك الجموع مندهشا، وعرفت أنّ "أم محمود" غادرتنا.. اختار لها الله أن ترتاح أخيرا، بعيدا عن هذه الضوضاء التي تملأ حياتنا، وبعيدا عن الضجر والقرف.. ها هي "أم محمود" تخرج من لعبتنا الدائرية، هاهي تعتزل الحياة لترتاح، مرتحلة إلى الأبد..

5

*****

كنت أزور محمود على امتداد المدة التي كان يرقد خلالها في المستشفى..

كنت أزوره على فترات متباعدة، نظرا لوجود تلك المستشفى في المدينة البعيدة. ورغم ذلك فقد توطّدت علاقتنا شيئا فشيئا حتى صرت صديقا له..

كنت الوحيد الذي أزوره، فقد تلاشت كل علاقات محمود الخائبة. حتى أقاربه القليلون نسوه، كأن لم يكن في حياتهم.. ولم يكن محمود ليبالي بذلك، فهو لم يكن يوما على علاقة وطيدة بأقاربه. كان منفيّا ومنسيّا، ومنعزلا في ذلك الحي الهامشيّ الذي عاش فيه..

بعد لقائي الأوّل والوحيد بمحمود في السجن، رأيته مرة ثانية يوم وفاة والدته. إذ أراد مدير السجن أن يرحمه، تعاطفا مع حالته الصحية، فأخذ على عاتقه مسؤولية حضور ذلك السجين محمود جنازة أمه. سامحا له بأن

يودعها الوداع الأخير، ويلقي عليها نظرة واحدة أخيرة..

في تلك المرّة التي رأيت فيها محمودا، لم يكن بتلك الحدّة، ولا القوة النسبيّة التي كان عليها في السجن.. كان منكسرا ومنهزما كعجوز وحيد. وتذكرت تلك المقولة، وأنا المراقب الموضوعيّ للأحداث، "ما يزال الإنسان شابّا فإذا ماتت أمه، شاخ فجأة."

أمّا في المستشفى فقد بات محمودا أكثر كآبة وحكمة.. التقيته أوّل مرة في العاشر من مارس لسنة تسع وتسعين، وهو يرقد للعلاج..

التقيته خمس مرات في ما أذكر، وكنت في كلّ مرة أحتاج إلى دليل يقودني نحوه، داخل دهاليز تلك المستشفى المخيفة..

كان محمود يرقد وحيدا في غرفة ضيّقة، وكأنّه حالة خاصّة من البشر. وكان على امتداد زياراتي له يطيل الصمت والشرود.. كان مكتئبا فعلا، وكان يخضع لإشراف طبي مشترك بين أطباء الجسد وأطباء النفس..

كنت أحادث محمودا كصديق، مستبعدا من رأسي وأقوالي أيّ شيء قد يعكّر مزاجه.. استبعدت من أقوالي حديثي عن عجزه، وعن مريم، وعن أمّه، وعن أبيه، وعن حياته، كأني لا أعرف هذه الأمور..

ورغم ذلك فقد كان محمود، ينزعج من مجرّد حضوري!!

كان يريد أن يمكث وحيدا، وأن يترك لشأنه، كشجرة نفضت أوراقها في الخريف..

وفي لقائي الثالث به، يوم الثاني عشر من أبريل، خطر لمحمود أن يتحدث في تلك الأمور التي كنت أتحاشى الخوض فيها، وقد رأيته يتحسّن إلى الأفضل من ناحية نفسيّة على الأقلّ..

قال محمود:" أتدري حضرة المحامي ما يكون هذا اليوم؟"

قلت:" ما يكون يا محمود؟"

قال وقد عمّه السلام والسكون والحكمة، كأنّه يأتي من عالم آخر:" إنّه يوم الذكرى الثالثة لوفاة مريم، تلك المرأة التي كانت تواسيني بصبر، فقد كانت صبورة وحكيمة. وماتت كما يلفظ البحر صَدَفَة.. كما يدوس الرجل خنفساء، صُدفة.."

قلت كمن يستغلّ فرصة:" أكنت تحبّها يا محمود؟"

ردّ دون أن يفاجئه السؤال:" لست أدري.. ربّما لم تكن هناك فرصة للحبّ.. لكنّي كنت أحترمها.."

قلت كمن يطلق الرصاص:" لماذا إذن قتلتها بوحشيّة؟"

ردّ منقلبا إلى غضب خفيف، سرعان ما تداركه بالعودة إلى سكونه:" كلا، لم أقتلها.. أعني أني قتلتها، وذاك ما كان من قدرها.."

قلت كمن يواصل إطلاق الرصاص، وقد حاصر مجرما:" لقد قلت إنّك لم تقتلها.."

- قتلتها..

- وفي التحقيق قلت إنك تكرهها، والآن تقول أحترمها.. ألن تصارحني وتريحني يا محمود..
- أنت تعرف أني مجنون الآن.. لا تثق بكلام مجنون. ذاكرتي يصيبها التلف.. ثق بأقوالي السابقة، وكفى..
- لماذا كانت الطعنة مرتعشة؟ كيف أقنعت المحقق أنّ مريم انتحرت في التحقيق الأول، وأنت تعرف ماذا يعني التحقيق البوليسي في بلادنا.. لا أحد تقريبا ينجو من قول الحقيقة في حضرة التحقيقات. كيف نجوت أنت إن لم تكن صادقا؟! ثم عدت واعترفت بالجريمة؟ لماذا لا تريحني يا محمود، وتحلّ اللغز..

كان محمود يسمعني بشرود، وبينما كان يغيب مع كآبته، أضفت مطلقا رصاصتي الأخيرة القاتلة:" هل لذلك علاقة بعجزك الجنسي؟"

انقلب محمود فجأة ناظرا إليّ بحنق وتساؤل، نظرات حادة مخيفة. غير أني واصلت متحدّيا دون رحمة:" لقد زرت طبيبك وعرفت كل شيء.."

لم يستطع محمود التحمّل، وهجم عليه الألم الجسدي يعصره عصرا، وصاح محمود صيحاته البائسة بفزع، فهرع إليه الطبيب والممرّضات يسعفونه. وقال الطبيب:" ماذا قلت له حتى يحصل معه هذا؟ يجب أن تغادرنا يا سيدي." فغادرت وتركت محمود للرحمة والقدر..

في زيارتي الأخيرة له، كان محمود أكثر سلاما ودعة.. لم ينزعج من زيارتي على عكس ما توقعته، بل صافحني مبتسما، رغم مسحة الحزن التي كان عليها. وسأل عن أحوالي وهو يُجري الكلام على لسانه بصعوبة. مستأنسا بكلامي معه، إذ كنت أحدّثه حديثا مشجّعا..

ثم قلت:" هل تعرف ماذا أهدتني العجوز أمك؟"

التفت إليّ بفضول خفيف، فأضفت:" لقد أهدتني خواطرك.. خواطرك الرائعة يا محمود."

ابتسم وقال:" لا أذكر."

قلت:" ألم تعد تؤمن بالكتابة؟"

قال:" لم أعد أؤمن بشيء، رغم أني لم أؤمن بشيء في حياتي مثلما آمنت بالكتابة، حتى أني شاركت مرة في مسابقة أدبيّة.."

قلت بفضول غريب:" وماذا حصل معك؟"

ردّ بسخرية:" حصلت على تنويه يقول؛ نشكر لكم مشاركتكم الرائعة، لكن المسابقة مخصصة للروايات، وما تقدّمونه لا يصنف ضمن فن الرواية.."

قلت مشجّعا:" نعم يا محمود ما تكتبه جميل، ربما نشرت خواطرك يوما.."

رد باستعلاء، ممزوج بحزن عميق:" ترهات، قد توقعك في المشاكل."

قلت مغيّرا الموضوع:" فمن تكون فدوى يا محمود؟ تلك التي تذكرها في خواطرك.."

سكت شاردا لحظة، ثم بكى بصمت كمن تحرقه ذكرى، وترقرقت دموع كان يكبتها، رغما عنه، محيلة إياه

على غصة في الحلق وانكسار.. ثم انفتح على كلام صاف كأنه يلقي إلى الحياة سرّه كحكيم، قبل رحيله قائلا:" سرّ الحياة والعذابات.. وهم البدايات.. ألق الأمنيات فدوى هي حبيبتي.. لكن سامح الله والدي.."

قلت:" لماذا لم يجمع الحب بينكما؟"

شرد للحظة قصيرة، ثم رأيته يغيب في فراشه، ويُصَرُّ كقط حزين..

فهمت أنّه يتعين عليّ المغادرة، فغادرت وفي النفس شيء لا أفهمه من الحسرة واللوعة.. كان ذلك في الثلاثين من أبريل، وقد عزمت أن لا أعود لزيارة محمود، فودّعته بنظرات متأسّفة ورحيمة مشفقة، فيما كنت أغادره بخيبة وأسف..

كان شعورا مرّا بالخيبة والحزن لا أفهمه، كنت أغيب عائدا إلى بلدتي وهائما في شوارعها، ملتحما بحزنها وسكونها الأبدي. فيما كان ذلك الكلب الذي تركته على حافة الرصيف يموت.. يموت ويتحلّل مثيرا القرف بنتونة رائحته في الأنوف، دون أن يثير ضجر أحد أو

انزعاجه. وكانت الخيبة تستوطن النفوس كعشّ الغراب، وكانت المدينة تنام، تنام كجثة ملقاة في صحراء، لا تثير انتباه أو حيرة أحد..

6

*****

في يوم الخامس من جويلية من نفس السنة، بينما كان محمود يقضي آخر أيامه مسافرا في غيبوبة قد تطول، وبينما كان الضجر يمتزج بالحرّ، ليلقيا بضلال الوحشة على بلدتي الصغيرة، وبينما كنت في مكتبي أراجع ملفّات قضايا مختلفة. مفكّرا في مغادرة المكتب بعد أن مضى النهار، وصرنا آخر عشيّ. إذ رنّ هاتفي، فرفعت السماعة، وإذا برجل يقول في الهاتف:" مرحبا هل أنت السيّد شكري سلمان المحامي؟"

قلت:" نعم.. من المتكلّم؟"

ردّ:" أنا الدكتور سهيّل الأمين، الطبيب النفسي المباشر لحالة محمود.."

وأضاف:"يتعيّن أن ألقاك، معي أمانة لك."

استرجعت في لحظة خاطفة مشاعري تجاه محمود الذي صرت صديقا له، وقلت:" هل أسافر لملاقاتك اليوم؟ أنا في البلدة.."

قال:" اليوم أو غدا، الأمر لا يحتمل التأخير."

قلت خاتما، ودون أن أعي ما أقول:" إذن سأسافر إليكم الآن.. وقد ألقاك بعد نحو ثلاث ساعات."

ردّ:" إن لم تجدني بالمستشفى، فاتصل بي لنلتقي.."

كانت الساعة تقارب الخامسة مساء، حين جمعت وثائقي وملفّ القضية في محفظتي وامتطيت سيارتي، قاصدا تلك المدينة البعيدة التي كان يتعالج بها محمود من مرض العجز الجنسي، وهي التي يرقد فيها الآن في سلام بعد أن دخل في غيبوبة. وهي أيضا تلك المدينة التي يُفترض أن يُحَاكم فيها بعد نحو خمسة أيام.. بعض الناس هكذا، تلتصق حياتهم بمدينة. ليصبحا كلاهما يحدّث عن الآخر، كأنهما انعكاس لصورة واحدة مشتركة بينهما..

كانت الرحلة تستغرق نحو ثلاث ساعات، وإنها لحركة جنون فضّة، أن أسافر في آخر عشيّ هذا اليوم.. لا أعرف أيّ طاقة جنون قادتني للخروج في رحلةٍ آخر عشيٍّ. ولا أعرف لِمَ هذا الحماس تجاه كلّ ما يتعلّق بمحمود ! ولا أدري لماذا تذكرت ذلك المثل الشعبي الذي يلوم سفري إذ يقول:" من أراد النواح، فليبدأ من الصباح."

لماذا تبدو أمثالنا حزينة ومتشائمة هكذا؟ ألم يجدوا تعبيرا آخر عن الترغيب في التبكير للعمل غير التفاؤل بالشؤم؟! يبدو أنّنا شعب متشائم بطبعه..

لكني لم أكن أحبّ التشاؤم، ولا الشؤم. كما أنّني كنت أحبّ المساءات الرائقة لحلّ ألغاز القضايا، وكتابة المرافعات، وتنسيق كلماتها وحججها، كما ينتقي مشكّلو الباقات ورود باقاتهم آخر عشيٍّ، وكما ينظم الشاعر أبيات قصيدته بكلمات منتقاة، وتصفيف محترف للكلمات والصور..

آخر عشيّ صيفيّ رائق، تهبّ فيه النسمات الخجولة المنعشة، ويتهيّأ فيه المساء ليحلّ على المدينة. وعندها يخرج الناس كالحلزون من جحورهم، وينتشرون في الأرض لعبا ومرحا وتسلية، وقد راح يوم من التعب والتشنج ومضى خبره..

أمسيات الصيف رائقة رائعة، وها أنا قد طويت مسافات الرحلة، ووصلت على أبواب المدينة، منعطفا منعطف الجرة الدائرة ذاك.. غير أني لم أسلك باتجاه الطبيب الذي زرته في الشتاء، بل انتحيت مكانا على جانب أحد الشوارع، وركنت سيارتي مهاتفا الطبيب النفسي "سهيل الأمين"، في ما كان الغروب يحلّ على المدينة بعد، إذ لابد لكل شروق من غروب..

خَبّرَنِي الدكتور أنّه غادر المستشفى منذ ساعة، وأنّه سيكون بانتظاري في تمام الساعة التاسعة ليلا في مقهى "الترمينيس". وهو مقهى شهير ومعروف بمدينتنا الكبيرة، كنت أزوره حينما كنت طالبا جامعيّا يستجدي من دراسة القانون معنى لحياته..

كان مقهى يفتح على البحر، يقع في آخر المدينة بعيدا عن ضجّتها وصخبها في مركزها، ذلك الذي ترقص فيه الحياة رقصتها الدائرية سريعا كعقارب الساعة.. ذلك المركز الذي يتحوّل فيه الإنسان إلى مجرّد شيء يدور ويتحرّك داخل المتاهة كشبح أو ظلّ. وحيث يتحوّل إلى مجرّد عدد مسجّل، فلا أحد يعرفه وسط ضياعه إلا من خلال رقم متغيّر وسط تلك الأرقام المتشابهة الملعونة..

كانت الساعة تقارب الثامنة تقريبا، حين قدت سيارتي متجها نحو فندق المحبة، وهو فندق مريح وقريب من المقهى..

كان عليّ أن أهيّأ مكانا لإقامتي في تلك المدينة، فقد اقترب موعد المحاكمة، وكان من المناسب أن أستقرّ وأعدّ مرافعتي في مكان رائق. بعيدا عن البؤس الذي مازال يلفّ تلك البلدة المنسيّة التي تمضي وقتها في صمت وفي عبوس..

وصلت إلى الفندق في تمام الساعة الثامنة والربع، لم يكن بقاعة الاستقبال أحد عدا رجل عجوز يجلس بعيدا ومنفردا، يتأمّل الفراغ حوله كمعلم بوذي، وهو يرخي ذقنه على يديه اللتان التفّتا حول مقبض عكّازه. وعامل الاستقبال الواقف في ضجر وقلق..

غير أنّه انقلب نشيطا بنفاق ظاهر، وابتسامة مصطنعة، لمّا تقدّمت نحوه. وقال:" مرحبا"

قلت:" شكرا، هل أجد غرفة للحجز لمدة خمس ليال؟"

قال وهو يبتسم بسخريّة:" أتعرف أنّك محظوظ، سيّدي؟ إذ لم تبق إلا غرفة واحدة غير محجوزة! أنت تعرف أنّنا في أواسط الصيف، وهي الفترة المناسبة لعمل الفنادق. إنّك الأخير في ضيافتنا يا سيّدي."

قلت بدهشة:" الأخير؟"

فقال:" الأخير المحظوظ، في قافلة اليوم.."

ثم دفع نحوي ورقة، فسجلت بياناتي، وحصلت على مفتاح الغرفة الأخيرة..

وصف لي مكان الغرفة، فلم أستطع استيعاب ما يقوله، وعمّني ضجر ووحشة. فقلت كالذي يتوسّل:" هل بإمكانك مرافقتي بين متاهات الدهاليز؟ من فضلك.."

ردّ بابتسامة تخفي كثيرا من الشماتة:" لا أستطيع، آسف لأجل ذلك. فلا يمكنني أن أترك عملي، ولو لدقيقة.."

التفت العجوز نحوي، محدّقا بغموض موحش. وقال، وهو يقف متوكئا على عكّازه:" أنا أرافقك يا بنيّ، فلا أحد يعرف هذا الفندق مثلي.."

لم يعجبني تطفّل العجوز الغريب، شعرت نحوه بوحشة ورهبة، فرضتهما عليّ هيبته وهيئته، وطريقة جلوسه، والتحامه متأملا بهذا الفضاء الفارغ.. لكني رضيت بمرافقته، وقلت:" حسنا، لنصعد باستعانة المصعد الكهربائي."

ردّ العجوز بحزم:" بل سنصعد الدرجات، لا أحبّ القفز، أحبّ أن أسلك الطريق خطوة خطوة.."

ورأيته ينطلق أمامي قاصدا الدرجات، فتبعته مستسلما، دون أن أعرف إن كان يتحدث عن درجات المبنى أم عن شيء آخر لا يتّسع لفهمه عقلي.. سرت وراءه صامتا، كمن يتهيّب مرافقة رجل غامض، يحتفظ بأسراره. بينما قال العجوز:" هذا الفندق قديم، قدم الحياة نفسها!! لا يعرف أحد من بناه.. إني أقيم هنا منذ خمسة وثلاثين عاما، كتجلّ أخير للرحمة.. كنت ساعتها ابن أربعين سنة، كنت قد أنهيت ربيع عمري مشرّدا وضائعا بين شوارع المدينة الواسعة.. مكّنني صاحب الفندق من غرفة على وجه الفضل، ومنذ ذلك العهد وأنا أسكنها.."

كنت أتهيّب رهبة من كلامه، وأنا أسمعه كأنّي أسمع لحكيم يأتينا من الأزمنة القديمة.. لكنّي بدأت فجأة مع ذلك، أستأنس بشخصه، فتملّكتني الألفة نحوه..

كان العجوز يتوكّأ على عصاه ببطء، وكان القلق يلفّني، خوفا من ضياع موعدي مع الدكتور. غير أنّي تقدّمت حتى صرت أسير بجانبه، وقلت:" آه يا عماه! شَكَرَ الله

لصاحب الفندق. لكن كيف انتهيت أنت هكذا؟ أليس لك أهل؟ لماذا لم تكن لك زوجة وعائلة؟!

ضحك العجوز ضحكا خفيفا يليق برجل مثله، وقال:" أي بنيّ، ضاع نصف عمري في الزهو والخيلاء، لم أكن أفكّر إلا بيومي.." ثم أضاف بعد سكتة وجيزة:" قصة طويلة، يمكن أن ألخّصها في جملة واحدة؛ عُود مقطوع من شجرة واحترق، صار رمادًا فرضي."

ثم سألني:" ما هو العدد الذي يحمله باب غرفتك؟"

نظرت إلى المفتاح، وقلت:" خمسة وسبعون."

ابتسم العجوز، وقال:" مثل عمري.. إنها في الطابق الأخير."

كان الفندق مؤلّفا من أربعة طوابق، وكان رغم عتاقته مناسبا للإقامة المقبولة والمرفّهة نسبيّا. فقد كان يتجدد بناؤه من فترة لأخرى.. غير أنّي سألت شيخي، وقد غلبتني أفكار مكبوتة، إلى الدرجة التي سرت فيها على

لساني، فقلت:" كيف يا عمّنا تصعد هذه الدرجات دون انزعاج مع أنّك قد بلغت من الكبر عتيّا؟"

ردّ العجوز، وهو يضحك ضحكه الخفيف، كمن تغرّه المعرفة والتجربة:" تعوّدت يا بنيّ، ومن يتعوّد يحبّ. أنا أحب هذا المكان.. إنّه جزء مني، وأنا جزء منه.. أصعد هذه الدرجات كل يوم، لأتفقد عمل العمّال، وأساعدهم، وأحلّ مشاكلهم مع المقيمين أحيانا.."

وصلنا أخيرا إلى الطابق الرابع، وانفتحنا على رواق طويل فُرش على أرضيته بساط أحمر. فسرنا كملكين، ثم اكتنفتنا الدهاليز، تلك التي كنت أكرهها، وأتهيّب ضياعي داخل متاهاتها المعقّدة.. غير أنّ العجوز صحبني في تلك الدهاليز كدليل صحراء، حتى كنّا أمام غرفة منعزلة، انتهينا إليها وقد اعترضتنا أبواب غرف متناثرة، ومحاذية لبعضها كالقبور. حيث لم يكن يميّزها غير الأرقام التي وضعت على أبوابها. ثم يكتنفنا دهليز موحش يمتدّ على نحو خمسة أمتار، نصل في آخره إلى باب غرفتي..

قال العجوز كمن يشير إلى نهاية رحلة بحكمة خمسة وسبعين عاما:" هذه غرفتك."

شكرته، وفتحت بابها، فإذا هي غرفة ضيّقة. انتصب على جانبها الأيمن سرير، تحاذيه منضدة صغيرة وضع عليها هاتف. أما الجانب الأيسر فقد وضعت فيه خزانة خشبية متوسطة الحجم، تفتح أبوابها الثلاثة على الفراغ.. في ما عُلّق جهاز تلفزة على الجدار..

كان بجانب السرير باب صغير خمنت أنه باب حمام، بينما كانت نافذة كبيرة في الواجهة، مغلقة بوجه شرفة تفتح على البحر البعيد..

التفتُّ لأعطي لعمي العجوز بعض الدنانير شكرا له، فإذا بي لا أراه. وقد اختفى في دهاليز تلك المتاهة كشبح.. نظرت في الساعة، فإذا بها تشير إلى التاسعة إلا الربع. فسارعت إلى الغرفة أغلق بابها، وقد ألقيت بمحفظتي على السرير. واقتحمت تلك الدهاليز الموحشة، أسارع لإدراك موعدي مع الطبيب النفسي..

كنت حالة فريدة، فلا أحفظ تفاصيل الفضاءات بسهولة. لذلك فقد اعتمدت على أرقام تلك الغرف لأميّز الطريق، معتمدا العدّ التنازليّ للأرقام. فيما كان ذلك الفضاء الحلزونيّ الصامت، ينفتح على الضجر والخيالات والوحشة..

وصلت إلى الرواق الطويل مختنقا، ورغم ذلك فقد سارعت إلى تلك الدرجات أنزلها بخفة، كعصفور يقفز فوق الأرض ليطير بعيدا وقد غادر قفصه الذي يسجنه..

وصلت قاعة الاستقبال، فذهلت لمّا رأيت ذلك العجوز يجلس كسيرته الأولى مرخيا ذقنه فوق يديه، وممسكا بعصاه..

تجاهلت الموقف، وقلت مخاطبا عون الاستقبال:" سأعود قبل منتصف الليل."

ردّ بلا مبالاة:" عد متى شئت."

بينما ظلّ ذلك العجوز محافظا على هيئته، ولم يكلّف نفسه حتى أن ينظرني أو يتبعني بنظراته. وأنا أغادر الفندق، وأجتاز عتبة بابه الواسع..

تجاوزت العتبة منفتحا على حديقة صغيرة حيث نبت عشب أخضر نديّ، وكان الماء ينبع ليروي أوصاله، وأوصال أشجار متباعدة من النخيل والرمّان، وأشجار الزينة التي كان بستانيّ الفندق يقلّمها بانتظام..

وانحدرت سريعا نحو شارع طويل مبهج، نبتت على جانبيه أشجار متناسقة الوجود. وهبّت نسمات الصيف منعشة، وسرى في جسدي هواء نقيّ، فانتشيت طربا، وأنا أمشي في ذلك الشارع الفاتن المريح للأعصاب..

سرت ما يقرب من ألف متر على امتداد عشر دقائق، وما لبثت أن انعطفت ماشيا في شارع قصير قادني إلى الشاطئ الساحر، وغاصت قدماي في الرمال الذهبية للشاطئ. وكان الناس يتنزّهون هنا وهناك حولي، في ذلك المكان الذي نحب الصيف من أجله..

ألقيت ببصري تجاه البحر، فرأيت بعض الناس يسبحون. وقد أضاءت الكاشفات الضوئية ليلا منعشا دافئا، لا يعرف برد ليالي الشتاء وصمتها.. وها أنا ذا أصل إلى المقهى، وقد طالعتني لافتة ضوئية لامعة، كتب عليها بحروف عربية وأجنبية "تيرمينيس". وكانت تلك الحروف تتحرّك راقصة ومزهوّة، وهي تظهر وتختفي بفعل اللعبة الضوئيّة كشبح..

دلفت إلى المقهى، وقد ارتجف قلبي، إذ تذكّرت قول الطبيب النفسي:" المسألة لا تحتمل التأخير." وخمنت أنّه أمر مربك ومفاجئ.. لا أعرف لماذا خمّنت في تلك اللحظات الخاطفة، أنّ محمودا قد مات.. ربما لأنه لا يخطر ببالي شيء آخر يجعل هذا الطبيب يدعوني للقائه..

أجريت اتصالا تجاه الطبيب النفسي، فأخبرني أنّه في الطريق إليّ، وأنّه يتعيّن عليّ أن أجلس بانتظاره.. كان الناس حولي قد ملؤوا ذلك المقهى جلوسا، وضحكا، وحديثا. فانتحيت مكانا منعزلا قبالة البحر، ظل فارغا كأنّما ينتظرني لأؤنس وحدته. فجلست مستقبلا نسمات

باردة، هبّت على قميصي فحرّكته، وعلى دماغي فأنعشته..

جاء النادل يسرع نحوي مبتسما، وقال:" مرحبا." على عادة عمّال السياحة. فشكرته، وطلبت عصيرا باردا، لأطفأ نار الحيرة والحرّ معا..

لحظات من تأمّل البحر والشرود، قطعهما رنين هاتفي، إذ هاتفني الطبيب فكلّمته واقفا من مجلسي، وواصفا له مكان تواجدي. ثم مشيرا إليه بالاقتراب، لمّا رأيته على عتبات المقهى المفتوح على الشاطئ والبحر..

جاء الطبيب فحيّاني وجلس، مجريا بعض الحديث الروتيني حول الأحوال والصحة. ثم قال:" لاشك أنّك تتساءل حضرة المحامي، عن السبب الذي يجعل طبيبا مثلي لم يلتقيك يوما، يرهق نفسه بحثا عن وسيلة للاتصال بك، ليطلب لقاءك سريعا هكذا؟!"

قلت مستسلما ومبتسما:" نعم، صدقت سيدي الطبيب. لقد تساءلت حول هذا الأمر بحيرة فعلا."

وأضفت:" لكن أنت لا تعرف أني متحمّس بشأن كلّ ما يهمّ محمودا."

ردّ الطبيب:" المسكين.. عاش حياة معذّبة، وهو الآن يرقد في غيبوبة."

قلت:" هل من أمل له في أن يستردّ وعيه؟"

قال:" لست مختصّا في ذلك، لكن حسب خبرتي العينيّة، فإني أقول بكلّ أسفٍ، أن لا أمل للسيّد محمود في النجاة.. إنّه يموت. يقضي أيامه الأخيرة، إن لم تكن ساعاته الأخيرة."

قلت:" ليرحمه الله، فذلك قدره."

قال الطبيب:" أتعرف أنّ محمودا يستحقّ الرحمة؟"

قلت بلهجة أقرب إلى السخرية:" كلنا نستحقّ الرحمة."

أضاف:" اسمع، لي أمانة لك."

قلت:" خيرا إن شاء الله."

قال:" من محمود.."

قلت متعجبا:" محمود؟!"

سألني الطبيب:" متى زرت محمودا لآخر مرة؟"

قلت متذكّرا، ومسقطا من ذاكرتي زيارتي الفاشلة له يوم الثاني من جويلية:" أواخر شهر أبريل."

ردّ بلهجة تميل إلى الحزن:" كنت المباشر لحالته النفسية، وفي الثالث من شهر مايو، تحوّل محمود إلى رجل أبكم. فلم يعد يتكلّم بفعل مرض السرطان.. كنت أراه يكتب بعض الأوراق ليلقي بها في سلة المهملات عند رؤيتي.. عرفت أنّ محمودا محبّ للكتابة، إنها السلاح الذي يتّخذه للتعبير عن ذاته تجاه العالم. ففكّرت أن أتواصل معه عبر الكتابة. ثم طلبت إليه أن ينسى كل الأمور التي لم تعد تعني شيئا، مثل القضية والسجن.. قلت له إني سأكون بجانبه حتى النهاية، وطلبت إليه أن يكتب ما يريد.. أردته أن يصنع حركة مقاومة أخيرة في وجه وجوده العاثر.. فانبرى محمود يكتب بلذة. وكنت أخفي تلك الأوراق دون أن أطّلع عليها حتى.. وفي يوم السادس والعشرين من جوان،

طلب محمود أوراقه مصحوبة بظرف كبير، وآخر صغير. فجئته بما طلب، فكتب على الظرفين المغلقين؛ إلى شكري سلمان المحامي، مع فائق التقدير والشكر. وكتب لي في ورقة أخرى" سلّم هذه الأمانة إلى صاحبها."

وناولني الطبيب الظرفين، وقال بحزن:" كأنّ محمودا، كان يستشعر أنّه سيدخل على سفر، فدفع إليك ما كتبه ليبقى حيّا من بعده. وربّما كي لا تضيع حكايته بين منعطفات الزمان والتّلف.. وكأنّه قد بلّغ آخر وصاياه لك."

تسلّمت الظرفين بدهشة، فأضاف أمام دهشتي:" ربّما كان يحبّك، أكنت صديقه؟"

قلت متلعثما:" أظنّني صديقه.."

قال الطبيب:" إذن ربّما التقينا في المحكمة، أستأذنك."

غادرني الطبيب، بينما كانت الدهشة تغلب على كياني، وأنا أتأمّل كنز محمود الذي ألقى إليّ مسؤولية الاحتفاظ

به، كصديق مقرّب. وقلت:" ربما لم يجد محمود شخصا أقرب مني إليه، حتى يرفعني هكذا في نظره."

وأخذت ألوم نفسي ندمًا، لأني أهملت زيارة محمود خلال تلك المدة التي كان يقضي خلالها أيامه الأخيرة..

عدت أدراجي إلى الفندق، وأنا أحضن الطرد الكبير بحبّ. بينما دسست الظرف الصغير في جيبي.

دلفت في تمام الساعة الحادية عشر ليلا، فوجدت ذلك العجوز لم يفارق مجلسه كأنّما كان ينتظرني، وما إن لمحني حتى قام متوكئا على عكّازه قائلا:" هلمّا أوصلك إلى غرفتك، فلا أظنك تحفظ تفاصيل مكان تواجدها.." فتبعته مستسلما، دون أن يثير فيّ مسيره البطيء ولا دهاليز الفندق أيّة حفيظة..

دخلت غرفتي بينما غادرني عجوزي من جديد، تاركا إياي لخلوتي، وإنفراد الظرفين بي. فاستلقيت على فراشي، وأخذت أقرأ كتابات محمود المخفيّة بالظرف الكبير، ناسيا ذلك الظرف الصغير، ومنغمسا في ما يرويه محمود من سيرة حياته في ذلك المخطوط،

بأسلوب روائيّ مشوّق رغم ما يعمّه من اضطراب أحيانا..

كان محمود قد سلّم نفسه يوم العشرين من يناير للسنة الفارطة، سنة ثمان وتسعين. وها هو ذا يسرد تفاصيل ما كان قبل ذلك بيومين، لينخرط في جوّ من الذكريات والأحداث الهامّة في حياته، قبل أن يهجم عليه الموت فجأة..

كنت أقرأ بلذة تلك الرواية العجيبة، وبينما كانت الدموع تنهمر من عينيّ دون إرادة مني، كان إحساسي يتوقّد محبّة وتعاطفا تجاه صديقي محمود.. وكان عمي العجوز يقرأ في صلاته؛ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا.

وكان الليل ينجلي حولي، ليطلّ فجر آخر أحمر كستار المسرح الذي ينزل عند نهاية الرواية التمثيلية الحزينة، وكانت العصافير تسبّح باسم ربّها، وكان الظلام يرتفع عن مدينتنا، وعن حكاياتنا.. يرتفع بعيدا عن الأسرار، وكانت النفوس الحيّة تبتهج باليوم الجديد، في ما كنت

أنهي قراءة آخر كلمات محمود:" تنسى.. كمصرع طائر، كحبّ عابر، كشجرة مقطوعة، ككنيسة مهجورة، تنسى كأنها لم تكن.."

7

****

اليوم الأخير لإقامتي في الفندق، وبمدينتنا الكبيرة.. إنّه يوم العاشر من جويلية، يوم محاكمة محمود..

كنت في الليلة الفارطة أعدّ مرافعتي بكثير من التنسيق والتركيز. بعد أن اختليت بما تركه لي محمود من مستندات، وبما انتهى إلى يديّ من أدلّة.. وكنت أكتب مرافعتي بكثير من الراحة والهدوء والتسليم كمن يكتب وصية موته!!

زارني في تلك الليلة العم العجوز، وقد عنّ له أن يسامرني لبعض الوقت..

ظل صامتا، وهو يرقبني لنحو ساعة.. لم يتكلّم كثيرا، كان عجوزا حكيما، بعيدا عن الثرثرة. غير أنّ جملة واحدة ظلت ترنّ في دماغي، إذ قال العجوز، وهو يهمّ بالقيام:" تشبه حياة الإنسان حفلا، لا يستشعر الإنسان

قيمة الوقت أثناءه إلا عند نهايته." وغاب تاركا لي الوقت لأستغلّه في إعداد مرافعتي..

فتحت رسالة محمود إليّ، أعيد قراءتها كأني أفتحها لأول مرة، وقرأت:" **عزيزي شكري، يا من تصرّ على فتح الجراح، وتحترف النواح كالرياح.. إليك اعترافي الأخير لترتاح، وأنام أنا مرتاح الضمير.. عشت مثلك في البلدة المنسية، وبينما كنت أنت تتجنب كثيرا من لعناتها بفضل حظك الوافر، كنت أنا أتهاوى مقاوما وحلا يبلعني كقذارة.. وإليك الأسرار الحاسمة؛ في سن الخامسة عشر، أحالني أبي إلى العجز قامعا رجولتي إلى الأبد دون أن أعرف.. رفع ساقه مسدّدا نحو موطن رجولتي ركلة كما يغتال كلب، لأنه قرأ في أشعاري فدوى..**

أما عن مريم فقد اغتالتها البيئة العفنة التي تلقّفت عجزي بوافر الشماتة واللعنة..

مريم خائنة كبلدتي. لكني عذرتها كما عذرت بلدتي.. لم تحتمل استسلامي وبرودي، فضجّت بكلام الضجر

والموت، وتناولت سكينا مهدّدة بقتل نفسها ببشاعة. لمتها فواصلت التبجح، عيّرتني بأني ذكرى رجل لا يستحق الحياة.. تجاهلت ذلك، وحاولت نزع السكين من يدها، فجذبته نحوها بقوة في ثورة غضب غير مقصود فغاص في أحشائها، وكانت يداي المرتعشتان الضعيفتان تحاولان أن تمنعه فغاص بارتعاش صدفة. في ما كنت أنا مذهولا حائرا، محدثا نفسي بأن القدر يفعل مكاننا فعلا عادلا نعجز أحيانا عن فعله.. ثم ادّعيت قتلها، كي لا أحرم أخيرا من أن ينتسب لي فعل واحد حقيقي وناجح..

هل أسدل الستار على حكايتي؟ إذن سلامي لك وللحياة"

قرأت هذه الرسالة مرات عديدة خلال أربعة أيام، وكنت في كل مرة أقرأها أنفتح على الرهبة والوحشة واللعنات..

أخذت القلم وكتبت مرافعتي بيد مرتعشة، بينما كان قلبي مغمورا بالنقمة والوحشة، وكانت كلماتي توقّع على الورق كإطلاق الرصاص..

في الصباح، خبّأت تلك المرافعة التي كتبتها بدمي، وغادرت الغرفة كملك يذهب لحفل تنصيبه. وإذ تكتسحني تلك الدهاليز والمتاهات، فإني أجتازها اليوم بكلّ ثقة ودراية، خفيفا طائرا كعصفور يطير خارج قفصه، وقد عرف أخيرا طريق الحريّة..

اجتزت تلك الدهاليز حتى وصلت الرواق، ومنه إلى الدرجات الكثيرة التي نزلتها كما ينزل نبيّ من جبل بتمام الثقة والرصانة والحكمة..

وصلت قاعة الاستقبال دافعا المال والمفتاح للعون، ذلك الشاب الذي كثيرا ما ينام جالسا ضجرا وملا.. تبادلنا الشكر والابتسامات، والتفتّ ناحية اليمين، حيث اعتاد شيخي العجوز أن يجلس متّكئا على عصاه.. نظرت لألقي عليه تحية الصباح في يوم إقامتي الأخير، فلم أجده!

سألت بلهفة ذلك العون عن عجوزي الذي لا يفارق مجلسه ذاك أغلب الأوقات، فقال بكل أسف:" عمّنا العجوز مات فجر هذا اليوم.."

وأضاف أمام ذهولي:" وجدوه نائما في فراشه، نومه الأخير.. بعض الرجال هكذا، يموتون واقفين فجأة!!"

قلت:" لروحه رحمة وسلام من الرب السلام."

غادرته كما أغادر درسا، وانطلقت نحو المحكمة. للمحكمة دهاليز ودرجات أيضا.. دهاليز أضيق وألعن، ودرجات كثيرة متعبة.. غير أني اجتزتها بخفة على غير العادة، وقد امتلأت ثقة وقوة، وها أنا أقف أمام المحكمة التي تنتصب أمام عينيّ كجبل يثير فينا الرهبة بقدر ما يثير فينا الأمان..

اقتربت الساعة العاشرة صباحا، ساعة محاكمة "محمود عوينات"، ذلك الهامشيّ الذي انتهى.. وها أنا أتقدّم نحو قاعة المحاكمة، وقد انتصب ثلاثة قضاة كآلهة الانتقام في أساطير الإغريق، وأنا أراهم كأفاعي تتحيّن فرصة الانقضاض على فريسة..

اتخذت مكاني كهيئة دفاع، ونادى حاجب المحكمة على القضية وعددها. فقمت قائلا:" شكري سلمان محامي الدفاع."

قال القاضي الأوسط:" لتتفضل بتقديم مرافعتك."

وأضاف القاضي الذي على اليسار، بخبث:" أوجز في مرافعتك، فهناك قضايا أخرى كثيرة.."

قلت متجاهلا تدخّله، وقد انفتحت على انتشاء روحي وعظمة كما ينفتح نبيّ على وحيه، فرأيت أني مسند من الله:" سيدي الرئيس، حضرات المستشارين، سلامي إلى الكادحين.. سلامي إلى الهامشيين الذين يضجّون في الحياة ضجّتهم، فلا يسمعهم أحد.. سلامي إلى عذاباتهم، وإلى صمتهم.. أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.."

ورأيت ملامح الضجر على وجوه القضاة، وعرفت أنّهم يضيقون ضرعا بكلامي. غير أني تجاهلت حنقهم، وواصلت مرافعتي بكامل قوتي مضيفا:" أولئك الذين يحرمون من أبسط مقومات العيش الكريم.. أولئك الذين

يُلقون على هامش هذه الحياة، فيمضي وجودهم بلا معنى، ولا تمكّنهم الحياة من أيّة فرصة ليكونوا..

يعيشون داخل بيئة عفنة، تصلح لكل شيء إلا لحياة إنسان..

إنسان يحلم ويفكر، وينجز ويبدع، ويعيش.."

كنت أقول ذلك وأنا ألمح ملامح الضجر والقلق تزداد على وجوه القضاة وتخنقنهم في لعنة، حتى قاطعني القاضي الأيمن أخيرا، قائلا:" عفوا سيّدي المحامي، هل لما تقوله علاقة بقضيتنا؟" قلت في تحدّ:" تلك هي القضية سيدي، وما محمود إلا تجلّ بسيط وأخير لها."

قال القاضي الأيسر:" أوجز من فضلك، فهذا الحرّ لا يحتمل فلسفة."

أضفت غير مبالٍ بكلامهما:" عاش محمود داخل هذه البيئة العفنة، كتجلّ للّعنة والخيبة والعذاب.."

قاطعني القاضي الأوسط صادما:" محمود الذي تذكره، توفي بالأمس ولم يعد يعيش."

كان الخبر مفاجئا وصادما، لكني استوعبت تلك الصدمة بسرعة. فمحمود كان قد انتهى من ذاكرتي، ولم يعد قضيتي. وكنت أعرف أن موته مسألة وقت، حيث لم يعد موته شيئا بالنسبة لي أو للمدينة.. تذكرت في لحظة خاطفة ذلك القول الذي مللناه:" الموت لا يوجع الأموات، بل يوجع الأحياء." وتذكرت أيضا أغنية شعبية ملؤها النشاز تقول:" من بكى فليبك الحيّ، أما الذي مات فتتغمده الرحمة."

وانفتحت على ساعة من التجلي، وعرفت أن القضية هي قضيتنا نحن الأحياء، إذا أردنا أن نكون أحياء فعلا.. وصدعت في وجه القضاة مواصلا:" كان محمود يتخبط في الوحل والمهانة، ويتحطّم في صمت فلا يسمع أحد لصرخاته."

قاطعني القاضي الأوسط من جديد، وقد ضجر:" يا سيّدي المحامي، الوضع لا يحتمل فلسفة.. محمود مات وانتهى. نريد حكما سريعا، لأنّ أمامنا قضايا أخرى تنتظر حكما."

قلت:" محمود مات، لكن على العدالة أن تستمرّ وتأخذ مجراها."

قال القاضي الأيسر بسخرية:" نحن محكمة أحياء، لا محكمة أموات.. للموتى ربّ يحاسبهم."

قلت منفتحا على غضب، وكلام مرتجل:" على العدالة أن تستمرّ، وعلى القانون أن يعطي الحقوق، وعلى المساواة أن تتحقق.. حاكموا البيئة العفنة قبل أن تحاكموا الناس، فماهم إلا نتاج الظروف."

كانت قاعة المحاكمة تغصّ بالمتفرجين، فتراءت لي كمسرح. ورأيت نفسي كممثل صادق يعبّر عن هموم آلاف من متابعيه. ورأيت المحاكمات تراجيديات وكوميديات، منسوجة الخيوط بحرفيّة كاتب ماهر.. وضجت تلك الجموع حولي ضجرة غاضبة، كأنهم ينفتحون على مشاهدة مجنون، ألقي به في صدفة ساخرة في موقع المسؤولية..

وقال القاضي الأوسط، وقد عمّه الغضب أخيرا:" إن كانت لك أدلّة قانونية فقدمها. أو دعنا نؤجّل القضية ليوم آخر يتّسع لفلسفتك."

فتحت محفظتي مناولا إياه مستنداتي، وقلت:" سيدي الرئيس، إن القضية التي أمامنا ليست قضية قتل، بل قضية ضياع.. هذا تقرير طبي يثبت عجز محمود الجنسي، وأنه كان يتعالج منه دون جدوى. وهذا تقرير لجنة الأطباء النفسيين، ويثبت أن محمودا يعاني من اضطرابات نفسية تجعله غير مسؤول عن أفعاله ساعة وقوع الجريمة، إذ هو مصاب بمرض الشيزوفرينيا الذي جعله يعاني من التهيؤات والخيالات.. وهذا اعتراف بخط يده يشير إلى المأساة، حيث انتحرت مريم دون قصد."

قاطعني ممثل النيابة الساكن:" النيابة تطعن في الاعتراف.. لا يمكن الوثوق به كوثيقة قانونية، إنه مجرد ورقة يكتبها مجنون، وحتى إن وثقنا، فإن القضية تصبح؛ توجيه الاتهام بالقتل الخطأ، لا البراءة."

وأضاف:" هل تريد تبرئة المتهم أم توريطه؟"

قال القاضي الأيسر ساخرا:" المتهم الذي مات بالأمس!"

وقال القاضي الأوسط:" يا لها من مهزلة.."

قلت وقد هزمت أخيرا:" ما يهمّني هو الحقيقة.. ليست حقيقة ما جرى، بل حقيقة ما يجري داخل العشوائيات.."

وضجّت حولي القاعة ضجرا، وقال القاضي وقد التفت يمينا ويسارا مشاورا زميليه:" حكمنا بعدم سماع الدعوة."

قلت كمجنون:" على محمود أن يحصل على حكم.. على القضاة أن يختلوا ثم يقرّروا. هذا خرق للقانون. قولوا إن محمودا بريء أو مذنب، لكن لا تحتقروا قضيته هكذا.."

وأمام هذياني المحموم، ضرب القاضي على الطاولة بمطرقته، ونادى الحاجب على القضية التالية. وجاء

الشرطي فأنزلني، فانحدرت في رواق القاعة شاقًّا الصفوف في خيبة..

وعلى عتبات المحكمة، أخرجت خواطر محمود ومظروفه، ثم ألقيت بمحفظتي حاضنا المظروف والخواطر في حبّ كما يحضن كاهن ألواح نبيّ. وسرت في الشوارع الواسعة كراهب، متمثلا قول محمود:**" عابر سبيل أمضي في الحياة بلا دليل، يفنى جسدي عند مماتي، وتخلد بين مسامع الأحياء كلماتي."** ومنفتحا على قول شكسبير:**" ما الحياة إلا ظل يمرّ، ممثل مسكين يتحرّك، ويستعرض لساعة على المسرح. ثم لا نعود نسمعه.."**

كان الحرّ يشتد، ويجثم على الأجساد والنفوس، وكانت المدينة تأخذ قيلولتها في سلام ودعة. وكأن شيئا لا يحدث..

-تمّت- مقهى الزيتونة،

آخر عشيّ 2018/12/21

مختارات من خواطر

محمود عوينات

الأبواب المغلقة

إلى ذكرى فدوى

على الأبواب المغلقة كان انتظاري..

وعلى العتبات كان حصاري

ربّما أضأت الطريق بخطاي

وربّما رسمت هذا العالم بأنامل يداي..

صغيرا كنت أحلم..

كبيرا صرت أحلم..

إليكِ ضممت هذا الحنين

وإليكِ تهت بحثا عنك..

عن الخرائط

عن الجداول

عن الغابات المخضرّة في عينيك

عن العالم المزهر في وجنتيك..

هذا العالم، ذلك العالم..

برتقالة معصورة، وأمانيّ محظورة، وأحلام وكدر..

إليكِ أكتب حتى ينتهي هذا السفر

وبعينيك أحلم حتى ينجلي عن قلبي الكدر

صغيرا أحلم وأطارد الأغنيات..

صغيرا كنت يا جدول الأمنيات..

صغيرا..

صغيرا مازلت صغيرا

ومازلت صغيرة تطاردين الفراشات..

في العيد الكبير لشجر اللوز

حين يعزف الشتاء معزوفته الشجيّة

وحين يورق الشجر..

يهطل المطر..

فأحلم، أحلم..

مازلت أحلم..

صغيرا كنت أركب الحصان الخشبيّ وأرنو إليك..

صغيرة كنت على العتبات..

وكنت ترقبين لهوي من الشرفات..

وحين يزور الثلج بيتي

وأنزوي كحمامة في ركني..

وحيدا أكون

ويمرّ الوقت، تمرّ السنون

وكنت وحدي أرسمك بما اتفق كيفما اتفق..

بالطبشور وبالفحم وبالحلم وبالخيال..

أرسمك كي لا يمرّ الوقت سريعا

أرسمك حلما بديعا

يتحدّى الغياب..

أكره الغياب، وأكره الضباب..

أكره الأسباب..

أكره حصار الذكريات، وارتسام الأمنيات

أكره إثمار الحقول، وسنابل أيلول

وأكره لملمة حطامي على عتبات الأغنيات

صغيرة كنت تطاردين زهو الربيع..

راقصة رقصك البديع

كعصفورة

كأمثولة

كحنين..

كلحن حزين..

كصرة أمنيات خبّأتها حتى مجيء الشتاء

خفيف رقصك كالماء

منعش كالهواء..

وكنت أطارد فيك حلم الخلود..

وحبّا يدوم وعهدا يسود

وكنت يا حلوتي لحن الأغنيات

ووهم البدايات..

وكنت أرسمك على الحيطان..

على الجدران..

على المزهريات والألوان..

على الحقول.. وعلى الخطوات..

رسمتك كدفء

حين كان البرد يعشش في العظام.

وكفرح حين كان الحزن ينام ولا أنام..

رسمتك كما أشاء لألعن هذا الجحود

وأثبت أني موجود

وأحيا حياة الخلود..

رسالة إلى المطر

أيّتها الأمطار

يا من لأجلك غنّت الأطيار..

وبسحرك تفتّحت الأزهار..

يا من تؤنس وحدة الأشجار..

وتباركين الديار..

يا من تصغين لحكاياتي

وتواسين عذاباتي..

حين تذبل على عتبات الحياة جذواتي

إليك زهوي..

إليك شغف الأمنيات

يحيا المطر..

يحيا إيقاعه يفضّ بكارة الأرض يُحيي الأمل

يحيا إيقاعه على الحيطان وعلى الشجر..

حوار مع الحياة

مررت على الحياة أسائل خطوي، أسائل الذكريات.. قلت يا حياة، ما الحياة؟ وما سرّ النغمات؟ وماذا تعنين بإزهار الربيع وبهذا الجو البديع.. وماذا يعني اصفرار سنابل أيلول.. وجفاف الورق على الشجر.. ماذا يعني لنا المطر.. ولماذا الخريف؟ يزورنا كل عام كضيف ظريف.. قلت يا حياة، يا حياة.. كيف تتجدّد الحياة.. وفيم الشتاء وهذا الهواء.. فيم تدكّ الريح الأبواب وتعوي في المدينة كالذئاب.. وفيم يدقّ الرعد الطبول، فيم الإزهار وفيم الذبول..

قالت كعجوز وقورة، بحكمة مغرورة:" أي بنيّ، وفيم أمضيت الصبا.. وفيم أفنيت جذوتي، جذوة الحياة.. أفي الفعل حتى امتلأت؟ أم في الخيبة حتى انتفخت.. تلك أنا، درسي بسيط وواضح. أعيده كلّ عام بشكل

فاضح.. إذا أطلّ الفجر فلا يغرنّك نوره، ولا تبتهج كثيرا بسروره.. ألم تر كيف يطفئ الليل غروره؟

إذا غنّى الربيع الأغنيات.. وأورقت أزهاره كالأمنيات، ومالت الأشجار تراقص الحبّات، وظننت أنّها تضحك الحياة فلا تأسفنّ يا فتى على الذي هوى، من ذلك العمر الذي مضى.. وقل عمّا قريب يعود الخريف بعد صيف ونيف. ينسينا الربيع، وجوه البديع.. تذبل الأزهار، وتهجر أعشاشها الأطيار.. ويسقط ورق الشجر.. وتبكي لأجلها السماء فيهطل المطر.. وتعوي الرياح.. ويعمّ في الطبيعة النواح، تستحيل الأشجار عارية، والأرض خالية، على عروشها خاوية.. فذلك هو الموت، صمت بلا صوت.."

قلت:" يا حبيبتي، فما الموت؟" قالت:" صمت بلا صوت، لابدّ له من أن يزور، حينما تكمل الحياة دورتها، حينما تبلغ منتهاها، وتصل اللذة أقصاها، أو تنزعك من الملذات، تتخطّفك من أحلامك المشتهاة.. لتدرك أن الأوان فات، وتترجّل كفارس عن الحياة."

قلت:" فما الحبّ؟" قالت:" فيم السؤال؟ الحبّ منتهى المنال، نصفه حقّ ونصفه خيال، منعّم بلباس الجلال، شعلة تنير الروح.. وعطر يفوح.. الحب فرح يدوم، أو قلب مهموم، سرّ مختوم.. الحبّ هو سري، لحني المشدود إلى الإيقاع.. حكاية جديرة بالسماع.. الحبّ عصاي السحرية، تحوّل الغصن اليابس أغصانا نديّة.. الحب هو الحياة، الحبّ هو أنا.."

عابر سبيل

عابر سبيل..

أمضي في الحياة بلا دليل..

يفنى جسدي عند مماتي

وتخلد بين مسامع الأحياء كلماتي..

للحياة سحرها سحر الوجود

وللمرء منا حلم الخلود..

أيها السامع مهلا ورفقا بعذاباتي

فلست ممن يختلق الترهات

ليستدرّ شفقة أو حياة

طريقي طويل ومشبع بالنغمات..

وأصغيت للكون أسامر الوجود

أحدث عن ذاتي هذا الليل يغزوه البرود

قلت يا ليل ما الإنسان

وفيم هذا الجحود

قال من ذا الذي يساءل سكينتي

ويأبى أن يركب سفينتي

من ذا الذي تخرق كلماته بنيان الوجود

ويُجاوز الحدود

قلت هذا أنا

رجل أبكاه الشجى

سكن رأسي السؤال

وهدّني سفري في الخيال

وغزاني الضجر فلم يرق لي بال

قال أي محمود، وفيم هذا الجحود؟ أتسأل عن الإنسان، وغيرك ينام في أمان

قلت غاب عني الجواب، وهدّني فراق الأحباب. فصرت أحيا في ارتياب..

وسألت الرب التواب أن يفتح الأبواب

وغاب الحلم غاب

كما غابت الأحباب

وهرعت إلى الأبواب

أفتحها الأبواب..

كلما فتحت بابا

أوصدت دوني أبواب..

وقالت الحياة ساخرة

أما تهدّك إرادة قاهرة

أما تسكن أيّها الشقيّ

وتنعم ببهائي الشهيّ

فيم العذاب والعيش في ارتياب وطرق الأبواب..

قلت يا حياة، يا حياة..

إلى متى العيش في منفاك؟

أيّ أنثى غادرة تراك؟

وجهك في الصباح كحلم شهيّ

كلحن شجيّ

فجرك نديّ

وفي المساء تغدرين

وجهك القبيح تكشفين

كعجوز شمطاء في الغابرين

ويطلّ ليلك حزين حزين

كنغم ناي يخنقه الأنين

قال الليل أنا أنيس العشاق، ومهيّج الأشواق

أنا صديق المتعبين ورفيق الساهرين

أنا كاتم الأسرار الأمين

قلت إليك سري

ها قد ضاع في الشوق عمري

والحنين الحنين

يقتلني الحنين

والنغم الحزين

قد ملّني النغم الحزين

فإليك يا ليل هذا الحنين

وهذا السفر وهذا الأنين

فأحفظ سري يا رفيق المتعبين

واكتمه كرجل أمين..